الفصل الأول

الاتصال والتأثير

انطلاقة الإسلام:

عندما بدأ النبي محمد ﷺ نشر رسالته في شبه الجزيرة العربية في السنوات الأولى من القرن السابع الميلادي ، كانت منطقة البحر المتوسط جزءاً من الامبراطورية المسيحية ، وكان كل سكان السواحل الأوروبية والأسيوية والأفريقية تقريباً مسيحيين من طوائف مختلفة ، كما كانت هناك ديانتان من الديانات التي خلفها العالم اليوناني الروماني تعتنقها أقليات في تلك البقاع ، وهما المانوية واليهودية .

وفي شرق البحر المتوسط استمرت الامبراطورية الرومانية الشرقية في الازدهار ، وهي تلك التي عرفها العالم بالامبراطورية البيزنطية ، وكانت القسطنطينية عاصمتها ، وقد حكمت سوريا وفلسطين ومصر وجزءاً من شمال أفريقيا ، بالإضافة إلى آسيا الصغرى وجنوب أوربا ، وفي غرب البحر المتوسط سقطت الدولة الرومانية ، ولكن شعوب الممالك التي أقيمت على أنقاض روما تبنت الديانة المسيحية ، وحاولت بنجاح منقطع النظير المحافظة على شكل الدولة الرومانية والكنيسة المسيحية ، ومع هذا لم تتجاوز الدولة المسيحية حدود أراضي البحر المتوسط . وكانت المسيحية سائدة في بداية القرن السابع فيما وراء الحدود الشرقية لبيزنطه ، وبلاد ما وراء النهرين في أقصى شرق الامبراطورية الفارسية التي كانت عاصمتها جزءاً من المملكة المسيحية ، رغم أنها لم تكن من العالم الروماني . وفيما وراء حدود امبراطورية روما وامبراطورية فارس ، عاشت الأقليات المسيحية واليهودية بين الغالبية الوثنية في شبه الجزيرة العربية .

وبعد وفاة الرسول ﷺ سنة ٦٣٢ م بسنوات قلائل اندفع المسلمون خارج شبه

الجزيرة العربية ، وقاموا بفتح الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الفارسية ، وهما الامبراطوريتان الكبيرتان اللتان اقتسمتا الشرق الأوسط فيما بينهما ، وضموا مساحات شاسعة من الامبراطوريتين ، فكانت الهزيمة من نصيب الامبراطورية الفارسية التي ضمت بأسرها للإسلام، كما اقتطع العرب من العالم الروماني سوريا وفلسطين ومصر، وبقية شمال افريقيا ، التي أصبحت فيما بعد نقطة ارتكاز ووثوب لغزو أسبانيا وجزر البحر المتوسط ، ولا سيما جزيرة صقلية . ولقد أدمج العرب كل الأقطار التي فتحوها في امبراطورية إسلامية جديدة هددت الامبراطورية المسيحية عند أطرافها ، وذلك بعد أن منيت الجيوش البيزنطية والبربرية بالهزيمة . وفي الشرق ضغطت الجيوش العربية على بلاد الأناضول من جهة سوريا والعراق ، ثم ضغطت على بلاد اليونان والأراضي المسيحية ، وعلى قلب الامبراطورية البيزنطية ، في الوقت الذي اجتاحت فيه الجيوش العربية الأخرى ، مع البربر ، أسبانيا بعد فتحها عبر البرانس ، وهددت بالسيطرة على كل أوروبا الغربية . واستطاعت الجيوش الإسلامية السيطرة على جزيرة صقلية ، وبعض أجزاء من جنوب إيطاليا ، وبدأت هذه الجيوش تهدد روما ذاتها .

وتذكر المصادر التاريخية أن معركة توروبواتيه قد أنقذت أوروبا المسيحية وأوقفت فتح المسلمين لأوروبا الغربية ، ففي عام ٧٣٢ م وجه الفرنجة بقيادة شارل مارتل Charles Martel ضربة قوية وقاتلة لجيوش الإسلام . والحقيقة أن هذه هي المرة الأولى التي وضحت فيها فكرة الكيان الأوروبي الذي يمكن أن يتعرض للتهديد ، ويجسد هذه الفكرة النص الذي أورده « جيبون » في مؤلفه « تدهور وسقوط الإمبراطورية الرومانية » ، والذي يتبين فيه الوعي الغربي أهمية تلك المعركة المشهورة والمصير الذي كان من الممكن أن تنتهي إليه أوروبا ، فيقول جيبون : « لقد امتدت الانتصارات لمسافة ألف ميل من صخرة جبل طارق إلى شواطئ اللوار ، ولقد أدى تكرار التقدم إلى الفرات في اجتيازه أو عبوره . ومن المحتم أن الأسطول العربي كان بوسعه أن يبحر إلى مصب التايمز بدون معركة بحرية ، وربما يدرس الآن تفسير القرآن في مدارس أكسفورد التي برهنت منابرها على طهارة الشعب وعلى قداسة وحق ثورة محمد »[1] .

ويستطرد « جيبون » قائلاً : « لقد أنقذت المسيحية من كل هؤلاء بواسطة عبقرية وحظ رجل واحد » .

أما التراث الإسلامي فيعكس نظرة مختلفة لقيادة « شارل مارتل » ونتائج معركة تور وبواتييه Tours and Poiter فلقد كان للعرب أدب تاريخي يمتاز بولع في تفصيل المراحل المتلاحقة للجهاد والنضال المقدس للعقيدة ضد غير المؤمنين ، وأهم ما يميز هذا التفصيل التسجيل الأمين المفرط في وصف النكسات والانتصارات بدقة .

كان العرب يدركون تماماً أنهم وصلوا إلى أقصى حدود اتساعهم في فرنسا ، ولقد تحدث بعض المؤلفين عن مدينة نابورنه Narbonne التي صمد فيها العرب حتى عام ٧٥٩ م ، ووصفوها بأنها « آخر الفتوحات الإسلامية في أراضي الفرنجة » . ولقد تحدث كاتب متأخر كان مهتماً بالعجائب والطرائف عن التمثال المقام في « نابورنه » والذي نقشت عليه الكلمات « يا أبناء إسماعيل عودوا من حيث أتيتم ، لقد تجاوزتم الحدود ، فإن سألتموني فسوف أجيبكم ، وإن لم تعودوا فسوف يضرب كل منكم الآخر بقوة حتى يوم البعث » [٢] .

إن المؤرخين العرب في العصور الوسطى لا يذكرون شيئاً عن « تور » أو « بواتييه » ، ولا يعرفون شيئاً عن « شارل مارتل » [*] وهم يذكرون الأسماء التي

(*) نلاحظ أن لويس في هذا الرأي قد جانبه الصواب كثيراً إذ إن صاحب نفح الطيب (جـ١ ، ص٢٧٤) ، وهو المؤرخ العربي أحمد المقري يورد نصاً يقول فيه : « ولما أوغل المسلمون إلى أربونه ارتاع منهم قارولة (يقصد شارل مارتل ، والذي يعرف بالمطرقة أيضاً) ملك الإفرنجه بالأرض الكبيرة ، وانزعج لانبساطهم ، فحشد لهم ، وخرج عليهم في جمع عظيم ، فلما انتهى إلى حصن أوذون علمت العرب بكثرة جموعه زالت عنه . . (ويتابع المقري قوله نقلاً عن الحجاري في المسهب قائلاً : " فاجتمعت الإفرنج إلى ملكها الأعظم - قارله - وهذه سمة للملكهم ، فقالت له : ما هذا الخزي الباقي في الأعقاب ؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس ، حتى أتوا من مغربها ، واستولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد بجمعهم القليل ، وقلة عدتهم وكونهم لا دروع لهم ، فقال لهم ما معناه : الرأي عندي ألا نعترضهم في خرجتهم هذه ، فإنهم كالسيل يحمل ما يصادفه ، وهم في إقبال أمرهم ولهم نيات تغني عن كثرة العدد ، وقلوب تغني عن حصانة الدروع ، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ، ويتخذوا المساكن ويتنافسوا في الرئاسة ويستعين بعضهم ببعض ، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر الأمور " .
النص نقلاً عن : الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا في القرون الثامن والتاسع والعاشر الميلادي تأليف جوزيف رينو ، تعريب وتعليق : د. إسماعيل العربي ، الطبعة العربية ١٩٨٤ ، دار الحداثة ، بيروت ، ص ٦٠ - ٦١ . (المترجم) .

ذكروها . وأما المعركة التي ورد ذكرها باسم « بلاط الشهداء » Bālāt al Shuhadā' في طريق الشهداء فإنها مصورة على أنها اشتباك صغير ، ولم يستدل على اسمها حتى القرن الحادي عشر ، ثم ذكرت بعد ذلك في كتابات المؤرخين العرب الأسبان ، وأما في تاريخ المشرق العربي فلم يكن لتلك الحادثة سوى ذكر عابر . ويذكر ابن عبد الحكم (*) (٨٠٣ - ٨٧١) ، وهو من أهم المعلقين العرب عن فتح شمال افريقيا وأسبانيا أن « عبيدة قد ولى عبد الرحمن بن عبد الله العكي على الأندلس ، وكان رجلاً صالحاً فغزا عبد الرحمن افرنجه وهم أقاصي عدوة الأندلس فغنم غنائم كثيرة وظفر بهم . . ثم خرج إليهم أيضاً غازياً فاستشهد وعامة أصحابه. وكان قتله في سنة خمس عشرة ومائة » (٣) .

وهناك مؤرخون آخرون يتساوون في الإيجاز ، ولكن الجدير بالذكر أن « الطبري » (**) (المتوفى ٣١٠ هـ / ٢٩٢٣) وهو أهم من أرخ من العرب للمشرق العربي ، وكذلك « ابن القوطية » (***) (المتوفى عام ٩٧٧ م) وهو أول مؤرخ رئيس أرخ للأندلس لم يقدما لنا أي ذكر عن معركة تور وبواتييه على الإطلاق .

(*) ابن عبد الحكم : هو أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم . كان أبوه عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢١٤ هـ / ٩٢٩ م قاضياً رئيساً للمالكية بمصر . ولأبي القاسم مصنف كبير في فتح مصر وبلاد المغرب . وتوفى بالفسطاط سنة ٢٥٧ هـ - ٨٧١ م ، وكتابه « فتوح مصر والمغرب » نشره توري سنة ١٩٢٢ م .

راجع : « تاريخ الأدب العربي » لكارل بروكلمان جـ٣ ، ص ٧٥ - ٧٦ (المترجم) .

(**) الطبري : هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، ولد في أواخر سنة ٢٢٤ هـ ، أو أوائل ٢٢٥ هـ / خريف ٨٣٩ م . في أواخر السنة بطبرستان . رحل في طلب العلم إلى العراق والشام ومصر ، ثم نزل بغداد فكان يعلم فيها الحديث والفقه .

كان الطبري كاتباً خصب النشاط ومؤلفاً جم النتاج إلى حد غير مألوف . ولم يقتصر جهده وإنتاجه على علوم الحديث والتاريخ ، بل تجاوز ذلك إلى تفسير القرآن وعلوم الفقه . وتوفى الطبري ببغداد ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م عن ست وثمانين سنة . وأهم مصنفاته في التاريخ كتاب أخبار الرسل والملوك ، والمعروف باسم تاريخ الطبري ، وهو تأريخ للعالم منذ بدء الخلق إلى عصره ، ينهج فيه من تاريخ الهجرة النبوية منهج الحوليات (المترجم) .

(***) ابن القوطية : هو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن القوطية ، ولد بقوطية ، وتلقى تعليمه فيها وفي أشبيلية . وقيل إن أبا علي القالي أحسن الثناء عليه عند الخليفة الحكم الثاني ، وقال إنه أعظم علماء الأندلس . وتوفى أبو بكر بقوطية سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م . ومن مصنفاته تاريخ افتتاح الأندلس ، من الفتح الإسلامي إلى سنة ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م . نشره ريبيرا في مدريد ١٩٢٦ م مع زيادات من كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة (المترجم) .

وإذا كان التراث التاريخي الإسلامي يهمل معركة تور وبواتييه أو يذكرها فحسب على أنها حادثة عارضة لا تستحق الذكر . . فإنه في مقابل هذا كان يوجد ما يمكن قوله عن محاولات المعاصرين لفتح القسطنطينية . فلقد وجه المؤرخون اهتمامهم للحصار والمحاولات غير الناجحة من الناحية التاريخية والأسطورية ، كما ذكرت بعض الحوادث العرضية التي وقعت في المعركة خاصة من ناحية التفصيلات التي تتعلق بالآخرة ، والتي تنذر بقدوم عصر المسيح .

وهناك بعض الشك في أن إغفال « بواتييه » والتأكيد على القسطنطينية يرجع إلى أن المؤرخين المسلمين نظروا للحوادث وأهميتها بصورة أصدق من المؤرخين الغربيين المتأخرين فلقد لقيت انتصارات الفرنجة في بواتييه اهتماماً أكثر من كونه مجرد اهتمام بفرقة من المغيرين متحركة خلف حدودهم التي تبعد آلاف الأميال عن أراضيهم ، فالفرنجة تغلبوا فعلاً على القوة التي وصلت إلى حدودهم وأبادوها . وفي مقابل هذا فإن المدافعين البيزنطيين عن القسطنطينية التقوا بنخبة جيوش الخليفة ، التي انطلقت من قواعدها في هجوم رئيسي على عاصمة الأعداء ، لقد قابلهم البيزنطيون وأوقفوا المد الإسلامي في الوقت الذي كانت فيه جيوش الإسلام أكثر قوة وتحمساً من ذلك الوقت ، الذي انطلقوا فيه من صخرة جبل طارق إلى شواطئ اللوار . ويشير «جيبون» إلى أن المسافة التي قطعوها كانت أكثر من ألف ميل ، لكن صخرة جبل طارق تقع على بعد آلاف الأميال من بلاد العرب . أما بالنسبة للعرب فقد كان الطريق إلى الراين عبر أوروبا الغربية أقصر وأسهل وأقل إرهاقاً من ذلك الطريق الذي سلكوه إلى نهر جيجون وحدود بلاد الصين . ولقد كان فشل الجيش العربي في فتح القسطنطينية ، وليست الهزيمة التي منيت بها الجيوش العربية في تور وبواتييه ، هو ما مكن المملكة المسيحية الشرقية والقريبة من البقاء . كان العرب يدركون تماماً الاختلاف بين المملكة المسيحية الشرقية والمملكة المسيحية الغربية للبيزنطيين ، فقد اعتادوا استخدام المصطلح روم Rum وهذا هو الرسم العربي، وفيما بعد استخدام المصطلح روما في الشكل الفارسي التركي.

أما بيزنطة . . فقد اطلقت على نفسها الإمبـراطورية الرومانية ، وأطلق البيزنطيون على أنفسهم اسم Romans .

وحتى يـومنا هذا فـإن الاصطلاح الشـائع للإغريـق في لغة الإسـلام هو الروم ، وتعرف أراضي الامبـراطورية البيزنطية الأولـى بأنها أراضي الروم ، ويطلق عـلى اللغة اليونانية اسم الرومية . وبهذه المناسبة فإنه حتى بين الإغريق أنفسهم كان الشكل المسيحي للغتهم ، بالـنسبة للبيزنطي والحديث ، يـعرف غالباً باسم Romaike . ولم يغب عن وعي الجغرافيين العرب أنه توجد مدينـة أخرى في إيطاليا تحمل اسم روما Rome ، إلا أن هـذا لم يكن معروفاً بصـورة واسعة، وكان ينظر إلى هذا الأمر على أنه أقل أهمية .

استمرت الجـيوش الإسلامية في التقـدم صوب حدود الإمبراطورية الإسـلامية من الجهة الشرقية والجهة الغـربية ، برغم الهزيمة التي منيت بها في القسطـنطينية ، ولكنهم مع هذا وصلوا إلى حـدود توسعاتهم ، وفي الغرب كان فـتح صقلية فيما بين الأعوام ٨٢٧ ، ٩٠٢ م هو المكـسب الإقليمـي الوحيد ذا المغـزى . أما في الشرق فـقد وقف المسلمون عند حدود الهند والصين . وفي الوسط ظـلت الحدود البيزنطية هادئة نسبياً ، وتم تأجيل الاستيلاء على القسطنطينية إلى المستقبل البعيد .

لقد وصلت الحرب المقدسة(*) إذن في مرحـلتها الأولى والكـبيرة إلى نهايـتها ، ومضى زمن طويل حتى خمدت نيران الحـرب وحماسة الفاتحين الأوائل ، الذين أرضوا تعطشهم لإحياء كلمة الحق بالنصر أو الشـهادة . أما الخلافة العباسية التي خلفت حكم الأمويين في منتصف الـقرن الثامن ، فقد نقلت العاصمة تجـاه الشرق ، من سوريا إلى العراق ، وحتى يتم هذا حولوا الخلافة إلى امبراطورية آسيوية وليست امبراطورية للبحر المتوسط ، وكـان اهتمام الخلفاء الجدد بـالجهاد اهتماماً سـطحياً(**) وتضاءل اهتـمامهم بحدودهم الغربية .

(*) كان من الأفضل اسـتخدام كلمة « الجهاد » بـدلاً من « الحرب المقدسة » فالإسلام لايـشن الحرب ولكن يعلن الجهاد . ولكنني فضلت الإبقاء على المصطلح holy war الذى استخدمه المؤلف لأنه سيذكر فيما بعد مصطلح « الجهاد » ويستخدمه بصورة موسعة . (المترجم) .

(**) هذا غير صحيح لأن الدولة العباسية شهدت فتـوحات كثيرة ، ولكن كان الاهتمام بالجزء الآسيوى من العالم أكثر من الجزء الأوربى (المترجم) .

واستمرت الدويلات الإسلامية الجديدة المقامة في بلاد البحر المتوسط في صراع ضد المسيحيين الأوروبيين لفترة ، لكن بعد قليل من الوقت تحول اهتمام المسلمين من الحرب المقدسة ضد الوثنية إلى مشكلات خارجية ملحة ، فمنذ الأزمنة المبكرة كانت هناك خلافات طائفية داخل العالم الإسلامي بين السنة باعتبارها نموذج الإسلام ، ورئيسها الشرعي هو الخليفة العباسي في بغداد ، وبين الطوائف المختلفة الأخرى التي تندرج تحت الشيعة الذين اعترضوا على آراء السنة وعلى شرعية الخليفة السني ، وخلال القرن العاشر وجد منافسون هم الفاطميون الذين ظهروا أولاً في تونس ، ثم في مصر ، واعترضوا على زعامة العباسيين للعالم الإسلامي ، وكان هناك أيضاً حكام ذاتيون ومستقلون في الدويلات الإسلامية قبل الفاطميين ، وكانوا جميعاً يتظاهرون بالولاء والاحترام على الأقل أمام سلطة الخليفة العباسي السني . أما الفاطميون فعلى العكس من ذلك . . فقد أنكروا كل مظهر للولاء وادعوا أنهم الخلفاء الوحيدون الشرعيون للإسلام ، وأنهم جاءوا ليطردوا العباسيين المغتصبين . ومن ثم فإنه بدلاً من وجود خليفة واحد أصبح هناك خليفتان للإسلام ، وسرعان ما أصبحوا ثلاثة عندما نَصَّبَ الأمير الأموي لقرطبة نفسه خليفة في الأراضي التي يحكمها ، بعد أن هدده الفاطميون بالتوسع والنشاط الهدام . ولذا أصبح الانشقاق المذهبي والتصادم بين الخلفاء المتنافسين هو مناط الاهتمام الأول في العالم الإسلامي ، ونسي الجميع تماماً الصراع القديم على الحدود ، وسرى شعور مشترك بين السنة والشيعة أن عصر البطولة قد ولّى ، وأن الحدود بين الإسلام والمسيحية أصبحت ثابتة بقدر ما ، ولا يمكن بحال تجنب إقامة علاقات مع دول غير مسلمة .

ولكن إذا كان الجهاد بالنسبة للمسلمين قد توقف في فترة ما . . فإنه بالنسبة للمسيحيين كان قد بدأ ، فلم ينس المسيحيون أن الجزء الأكبر من الامبراطورية الإسلامية يتكون من الأراضي التي كانت تخص المسيحيين ، بما في ذلك الأراضي المقدسة ، حيث نشأت الديانة المسيحية . وما شجع الهجوم المضاد الذي قامت به المسيحية ضد الإسلام إنما هو الضعف الواضح والإهمال الذي تفشى في العالم الإسلامي . كذلك

كانت تلك الحالة حافزاً كبيراً للآخرين ؛ فأول الغارات الخطيرة على المناطق المسلمة جاءت من أناس ليسوا مسيحيين أو مسلمين ، لقد أغار الخزر الأتراك على العالم الإسلامي من ناحية الشرق ، وأغار الفايكنج عليه من ناحية الغرب ، إلا أن هذه الإغارات لم تكن سوى حوادث عرضية سرعان ما انتهت ، أما الشئ المهم فهو إحياء القوة المسيحية ، وتزايد التصميم على استرداد الأراضي المسيحية المفقودة .

لقد بدأت عملية إعادة الفتح المسيحي عند أطراف العالم الإسلامي ؛ ففي أسبانيا نجد أن الإمارات الصغيرة التي نجحت في البقاء ، وحظيت بوجود غير مستقر في أقصى شمال شبه جزيرة أيبريا ، بدأت في دعم وتوسيع مناطقها وساعدها في ذلك هجمات الفرنج ، والنورمان على الأراضي المسلمة فيما بعد ، وفي الشرق بدأت شعوب مسيحية أخرى ، وهي « الجورجيان » و « الأرمن » القادمة من القوقاز في التمرد على سادتهم المسلمين . وفي النصف الثاني من القرن العاشر كان البيزنطيون قادرين على شن غارات عسكرية قوية ضد المسلمين في بلاد ما بين النهرين وسوريا والجزر اليونانية ، واستعادوا الكثير من المقاطعات التي فقدوها .

وفي خلال القرن الحادي عشر . . حققت القوى المسيحية انتصارات مهمة ضد الإسلام ، فقاومت مملكة جورجيا المسيحية في الشرق المحاولات الإسلامية التي استهدفت إخضاعها ، ودخلت في مرحلة توسع كبيرة سيطرت خلالها على ممرات القوقاز بين البحر الأسود وبحر قزوين . وفي البحر المتوسط استقر الغزاة المسيحيون في سردينيا وصقلية التي استردوها من الحكام المسلمين ، وفي شبه جزيرة أيبيريا تقدم الغزاة بثبات تجاه الجنوب ؛ حيث أعادوا مدينة طليطلة الأسبانية ومدينة كوامبرا البرتغالية إلى السيطرة المسيحية .

وأخيراً قامت مجموعات من المسيحيين القادمين من أوروبا الغربية في عام ١٠٩٨ بالاستيلاء والسيطرة لفترة من الوقت على المناطق الساحلية لسوريا وفلسطين ، وذلك أثناء سلسلة الحملات التي عرفت في التاريخ المسيحي بالحملات الصليبية .

ولم يكن الصليبيون معروفين بين المسلمين ، فكلمة « صليب » Crusade وكلمة « صليبي » Crusader لم تكونا من الكلمات المعروفة في كتابات المسلمين المعاصرين لهذا التاريخ . وفي واقع الأمر . . يبدو أنه لم يكن ثمة مرادف في اللغة العربية أو اللغات الإسلامية الأخرى لهاتين الكلمتين ، إلى أن وضعت مصطلحات لهما في الكتابات المسيحية في تاريخ ما ، فيما بعد . أما بالنسبة للمراقبين المسلمين المعاصرين للحملات الصليبية فقد كان الصليبيون هم الفرنج أو الوثنيون ، وهؤلاء ليسوا سوى مجموعة من البرابرة غير المؤمنين من بين مجموعات كثيرة هاجمت العالم الإسلامي ، وما يميزهم عن المجموعات الأخرى حبهم الشديد للحرب ، والنجاح الذي حالفهم . وفي هذا لم يختلف المسلمون بصورة كبيرة عن المسيحيين الأوروبيين الذين رفضوا لزمن طويل الاعتراف بالإسلام ديناً ، وأشاروا للمسلمين على أنهم كفرة أو بأدب أكثر استخدموا أسماء عرقية مثل شرقي أو بربر أو ترك أو تتار .

ويرجع النجاح الصليبي ، في جزء غير قليل منه ، إلى ضعف المسلمين . فالحضارة الإسلامية أظهرت فعلاً علامات للفساد ظهرت في منتصف القرن الحادي عشر . ونتيجة لازدياد المشكلات الداخلية والكيانات السياسية المجزأة كانت المقاطعات الإسلامية هدفاً لسلسلة من الهجمات الناجحة التي شنها من عرفوا عن المسلمين بأنهم البرابرة الداخليون والخارجيون ، الذين استمرت هجماتهم قرابة ثلاثة قرون من الزمان . ففي أفريقيا ولدت حركة دينية جديدة وحدت قبائل البربر في جنوب مراكش ومنطقة السنغال - النيجر ، ودفعت بهم إلى حركة توسع انتهت بامبراطورية جديدة للبربر ، تتكون في جزئها الأكبر من شمال غرب أفريقيا وأسبانيا المسلمة . ومن جهة الشرق غزت الأراضي الإسلامية شعوب قادمة من سهل وسط آسيا وما وراءها - وقد عُرفت هذه الشعوب أولاً باسم الأتراك ثم المغول ، وقد كان لهجرة هذه الشعوب وفتوحاتهم آثار بعيدة بحيث غيرت كل النماذج العرقية والاجتماعية والثقافية لمجتمع الشرق الأوسط . والأبعد من هذا أن انهيار الإدارة المدنية داخل الامبراطورية الإسلامية

سمح للبدو والرحالة الآخرين بالتجول بحرية كاملة داخل الأراضي التي سبق استصلاحها وزراعتها .

لكن لم تنزل واحدة من كل تلك القوى خسارة فادحة بعالم الإسلام ، فرغم كل هذا كان البربر والبدو مسلمين ، وسرعان ما أصبح الأتراك أكثر الأبطال جسارة في الإسلام . وأما أول تهديد حيوي موجه ضد الإسلام . . فقد جاء من البرابرة الوثنيين في الشمال ؛ أي من جهة أوروبا .

ويسجل المؤرخ الدمشقي ابن القلانسي(*) وصول الصليبيين في عام ٤٩٠ هجرية ، الذي يوافق عام ١٠٩٦ - ١٠٩٧ م . بقوله هذه السنة كان مبدأ تاصل الأخبار بظهور عساكر الإفرنج من بحر القسطنطينية في عالم لا يحصى عدده كثرة وتتابعت الأنباء بذلك فقلق الناس لسماعها ، وانزعجوا لاستشهارها » (٤) .

وبعد ذلك بقرن من الزمان ، وفي الموصل ، أخذ المؤرخ الكبير ابن الأثير(**) في النظر مرة أخرى في تلك الحوادث برؤية أكثر شمولاً ؛ فيذكر أن أول ظهور إمبراطورية الفرنج ، وازدياد قوتهم ، قد تمثل في إغارتهم على الأراضي الإسلامية واحتلالهم لبعضها ، وذلك في عام ٤٧٨ هجرية (١٠٨٥ - ١٠٨٦) عندما استولوا على مدينة طليطلة ومدن أخرى من أراضي الأندلس . وبعد أن تم لهم هذا استولوا على كل

(*) هو حمزة بن أسد بن علي بن محمد أبو يعلى التميمي الدمشقي العميد ، المعروف بابن القلانسي ، ولّي رياسة ديوان دمشق مرتين توفى سنة (٥٥٥ هجرية / ١١٦٠ م) . له ذيل تاريخ دمشق ، ذيل به على تاريخ هلال الصابي ، ويشمل السنوات ٣٦٣ - ٥٥٥ هجرية (٩٧٣ - ١١٦٠ م) وقد نشره امدروز في ليون سنة ١٩٠٨ . ونشر جب مقتطفات منه تتعلق بالحرب الصليبية مع ترجمة إنجليزية (المترجم) .

(**) هو أبو الفداء إسماعيل بن أحمد بن سعيد بن محمد عماد الدين الأثير ، ولد بالقاهرة سنة ٦٥٢ هجرية / ١٢٥٤ م ، وخلف أباه في وظيفته بالدولة بعد موته سنة ٦٩١ هجرية / ١٢٩٢ م . وكان عليه أن يصحب الملك الأشرف إلى دمشق في جمادي الأول ٦٩٢ هجرية / إبريل ١٢٩٢ م ، ولكنه رفض أن ينفذ حكماً بالإعدام في كرك ، فعاد أدراجه إلى القاهرة ، وانضم إلى بيدرا الوالي الذي كان قد بقي فيها . وعندما قتل بيدرا السلطان في محرم ٩٦٣ هجرية / ديسمبر ١٢٩٣ ، ولم يستطع مع هذا أن يستحوذ على السلطة ، وبهذا فإن ابن الأثير قد فقد مكانته . وقد اشترك سنة ٦٩٩ هجرية / ١٢٩٩ م في الحملة العسكرية التي أرسلت لقتال قازان التتري (المترجم) .

جزيرة صقلية من عام ٤٨٤ هجرية (١٠٩١ - ١٠٩٢ م) ، ثم اتخذوا طريقهم بعد ذلك إلى ساحل أفريقيا ، حيث احتلوا أماكن قليلة أمكن استعادتها منهم ، وبعد ذلك فتحوا مناطق أخرى كما سنرى الآن . وفي عام ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ - ١٠٩٧) أغاروا على أرض سوريا[٥] .

وهناك . . كان الصليبيون قد اكتسحوا كل العوائق التي أمامهم ، واستطاعوا إقامة خط من الدويلات الإفرنجية والمسيحية يمتد على طول السواحل السورية والفلسطينية ابتداء من جبال طوروس حتى مداخل سيناء . وانقضى أكثر من قرنين من الزمان ، قبل أن يكتسح الجهاد الإسلامي آخر آثار الإمارات المسيحية على الأراضي المسلمة .

في بداية الأمر استقبل أمراء الإسلام هؤلاء القادمين الجدد بغير مبالاة ، وقبل ذلك بوقت طويل أسست الدويلات اللاتينية مكاناً لها في خطوط متشابكة داخل الكيان السوري - الفلسطيني السياسي ، وكان الجهاد الأصلي قد ولّى منذ وقت طويل ، وحتى روح الجهاد كانت قد تلاشت ونسيت ، وكان هذا العصر متميزاً بالعنف والتغيير ؛ خاصة عندما هوجمت الأراضي الإسلامية من كل جانب ، من وسط آسيا ، وبربر أفريقيا ، وفضلاً عن ذلك من المملكة المسيحية ، حتى أن فقدان الساحل الفلسطيني والسوري أثار في أول الأمر قليلاً من الاهتمام في حلب ودمشق والقاهرة ، ومرّ دون ملاحظة في أماكن أخرى . ويصف ابن الأثير الذي كتب في بداية القرن الثالث عشر ، كيف وصل الفارون الأوائل من الاحتلال الصليبي لفلسطين إلى بغداد وتحدثوا عن متاعبهم وطلبوا المساعدة ، ولم يستجب أحد لطلبهم . كما أن افتقار المعلومات الصحيحة في هذا العصر يمكن تبينه عند شاعر عراقي يصف سقوط القدس وفشل المسلمين في التجمع للدفاع عنها ، ويتحدث عن الفاتحين على أنهم روم ، وهذا يدعو للقول أنهم كانوا بيزنطيين[٦] ، وفي الغرب والشرق كان الحكام المسلمون يرغبون في التعامل مع جيرانهم الجدد وبالمناسبة ؛ فقد رغبوا في التحالف معهم ضد المسلمين المنشقين .

وظل المسلمون والفرنج لقرنين من الزمان علي اتصال وثيق ومستمر في سوريا

وفلسطين ، وكان هذا الاتصال لا يتم غالباً في أثناء المعركة ، بل غالباً كان يتم من خلال التجارة والدبلوماسية والأحلاف . ولقرون بعد انتهاء الحروب الصليبية ، أخذ التجار الفرنج وغيرهم في الرحيل لمصر والمشرق ، بينما وقع حكام المسلمين معاهدات اقتصادية مع المراكز التجارية الغربية ، الواحدة بعد الأخرى .

وفي أقصى الغرب حققت إعادة الفتح المسيحي انتصارات كاملة ونهائية . ولقد طرد الحكام والرعايا المسلمين من إسبانيا والبرتغال وقبل انتصار الإسبان والبرتغاليين بزمن طويل كانوا قد طردوا حكامهم الأوائل إلى أفريقيا . أما في الشرق فقد استطاع الصليبيون أن يحافظوا على بقاء احتلالهم لفترة من الوقت ، وكان ذلك نتيجة للإمدادات المتكررة التي كانوا يتلقونها من أوروبا ؛ إلا أن الهجمات الإسلامية المتلاحقة استطاعت إضعافهم حتى سقطت آخر قلعة لاتينية في فلسطين ، وهي ميناء عكا في يد السلطان المملوكي عام ١٢٩١ م ، ومع هذا . . فقد بقيت جذوة ضعيفة من الروح الصليبية في أوروبا لفترة ، وساعدت على تشجيع بعض الحملات ضد المماليك من مصر وقوة العثمانيين الأتراك الناشئة ، ولكن باءت هذه المحاولات بالفشل . وفي نهاية العصور الوسطى فقدت المسيحية الأوروبية الاهتمام وشغلت بأمور أخرى . وفي الوقت الذي نسي فيه المسيحيون الروح الصليبية ، تذكر المسلمون روح الجهاد ، وقاموا مرة أخرى بشن حرب مقدسة للخلاص ، ولاستعادة ما سلبه الغزاة المسيحيون والدفاع عنه ، وما أن بدأ النصر يتحقق حتى واصل الإسلام رسالته ، وبدأ يرسل قادته إلى بلاد جديدة وشعوب جديدة لم يعرفها من قبل .

لقد كان التأثير الصليبي على الأقطار التي حكمها الصليبيون لمدة قرنين من الزمان ضعيفاً بصورة ملحوظة ، ففي تلك الأقطار وجدت قلة مسيطرة من كاثوليك أوروبا الغربية من البارونات ورجال الكهنوت والتجار مع خدمهم وأتباعهم المختلفين ، وكان السواد الأعظم من الشعب يتكون من المسلمين والمسيحيين من الكنائس الشرقية المختلفة، وكذلك من بعض اليهود . ولكن برحيل الصليبيين كان من السهل تبين أن هذه الأقطار أصبحت تؤلف مجتمعاً إسلامياً ، إلا أن الصليبيين تركوا علامة بارزة في هذه الأقطار

من حيث أمرين . . الأول تمثل في سوء وضع الرعايا غير المسلمين في الدولة المسلمة ، وما نتج عن هذا من صراع طويل بين الإسلام والمسيحية ، واحتياجات الأمن في المناطق التي يختلط فيها السكان المسلمون بالمسيحيين في الوقت الذي كان فيه الولاء الديني أمراً مهماً . ويمكن لنا أيضاً أن نضيف مثالا لما مارسه الكهنة والملوك المسيحيون ، فقد شكل هذا في نهاية الأمر موقفاً عنيفاً لبعض المسلمين . وفي هذه الفترة وما بعدها أصبحت العلاقات بين المسلمين ورعاياهم المسيحيين واليهود أشد تعقيداً ، وأكثر صعوبة[٧] .

أما التغيير الثاني البارز فقد تمثل في العلاقات بين الشرق الأوسط وأوروبا ، فمن المعروف أن هذه العلاقات كانت محدودة جداً فيما قبل القرن الحادي عشر ، ولكن الدويلات الصليبية ابتكرت أسساً جديدة للعلاقات التي وجدها كل حلفائهم المسلمين وسيلة للبقاء ؛ ففي أثناء فترة الحكم الصليبي ثبت التجار الأوروبيين ، ومعظمهم من الإيطاليين ، أقدامهم في موانئ الشرق الأدنى الإسلامي حيث شكلوا جاليات منظمة تنتمي لرؤسائهم وتحكم بقوانينهم . ولم يقض إعادة الفتح الإسلامي لتلك الموانئ على نشاط التجار الأوروبيين ، وإنما على العكس من ذلك لم يهتم الحكام المسلمون بإزعاج هؤلاء التجار وفضلوا تشجيع تلك التجارة التي كانت مصدراً مالياً مميزاً لهم ، ولمن يشتركون معهم فيها . واستمر التجار الأوروبيون في العمل الذي ازدهر في المعاقل المسيحية السابقة ، حتى إنهم ظهروا ، في تلك الفترة ، في مصر وفي أماكن أخرى لم يفتحها الصليبيون .

تلك القنوات الجديدة مع أوروبا أثرت في الجاليات المسيحية التي تعيش في الشرق الأوسط تحت الحكم الإسلامي . ومنذ هذا الوقت وما تلاه ، كانت هذه الجاليات على اتصال دائم مع الغرب ، إما من خلال التعامل مع التجار الأوروبيين ، أو من خلال الاتصالات الدينية بين المجموعات المسيحية المختلفة التي تتحدث اللغة العربية ، وهؤلاء هم الذين أفلتوا من الكنائس الشرقية وشكلوا جاليات لها علاقة بكنيسة روما . وساعدت الاتصالات الاقتصادية والكهنوتية على خلق نواة صغيرة لشعب يتحدث اللغة العربية ، ولديه بعض المعرفة باللغات الأوروبية ، وكذلك بعض الاتصال مع الأوروبيين

. وكان لهذه النظرة تجاه الغرب من جانب مسيحيي الشرق الأوسط دور ذو أهمية كبرى في الأيام المتأخرة . ومع هذا تحدد دور هؤلاء بدقة لوقت طويل ، وكذلك دور التجار الغربيين الذين أقاموا في مدن الشرق الأوسط . ومنذ العصور الصليبية فرق الانفصال الاجتماعي غير المسلمين المحليين عن غالبية السكان ، وأخضعت الاتصالات بينهم ، وبين السكان المسلمين للحد الأدنى للاتصالات الاقتصادية والسياسية أو لمحض الصدفة

لقد كتب صلاح الدين إلى الخليفة في بغداد عام ١١٧٤ م مبرراً سياسته الرامية إلى تشجيع التجار المسيحيين في الأقاليم التي أعاد فتحها واستردادها من الصليبيين . وذكر في خطابه أنه قام بعمل ترتيبات معهم ، وبذلك جعل أحوال التجارة لصالح المسلمين . ويقول صلاح الدين في خطابه : ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشنة ، والجنوية كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة صدهم ، ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتارة يكونون سفاراً يحتكمون إلى الإسلام في الأموال المجلوبة ، وتقصر عنهم يد الحكام المرهوبة ، وما منهم إلا من هو الآتي يجلب إلى بلدنا آلة قتاله جهاده ، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف المحالة وتلاده ، وكلهم قررت معهم المواصلة وانتظمت معهم المسالمة ، على ما نريد ويكرهون ، وعلى ما نؤثر وهم لا يؤثرون " [٨] .

ويفسر صلاح الدين هذه النتيجة بأنها قد جاءت تقريباً عن طريق إنشاء الاتصالات ، وتنظيم الشروط معهم قائلاً " وهذا هو ما نرغبه وما يستنكرونه ، وهذا هو ما نفضله ؛ ولا يفضلونه " .

لقد كان للكنيسة المسيحية الرأي نفسه ، ولكن تهديدها وأوامرها بالحرمان من رحمة الكنيسة لم تكن ذات قوة ؛ بحيث تمنع مواصلة وازدياد التجارة بين العالم المسيحي والعالم الإسلامي . ومن عجيب الأقدار أن جزءاً من القلاع القليلة كان يستأنف التجارة مع الغرب ، وربما كان هذا الجزء هو التأثير البارز الوحيد لأي أهمية تركها الصليبيون في الشرق .

ومع أن التجارة الغربية تطورت وازدهرت ، إلا أن الجيوش الغربية سأمت من سلسلة الهزائم الساحقة ، فطرد الصليبيون من كل الأراضي التي استولوا عليها ، ومرة أخرى فقدت مناطق كبرى من الرقعة المسيحية أمام المجاهدين المسلمين . ومثلما كان الحال أيام الإسلام الأولى شن المسلمون حرباً مقدسة ضد المسيحيين ، وفي هذه المرة وصلت جيوشهم إلى قلب أوروبا .

ولكن لم تبرز الحرب المقدسة التي هزمت وأزاحت الصليبيين نهائياً من الأقطار التي احتلوها ، أو من الشعوب التي انتصروا عليها أو انتهكوا حدودها . ولكن جاءت قوة الدفع الجديدة من أقصى الشرق ، ومن قوة إسلامية جديدة ، وهي الأتراك ، وهؤلاء شعوب يرجع أصلهم لشرق آسيا . لقد دخل الأتراك أراضي الخليفة فيما بين القرنين التاسع والحادي عشر وأصبحوا قادة الإسلام العسكريين والسياسيين ، وقد كان مجيء الصليبيين سابقاً لقدوم الأتراك وأثارهم فتحهم لسوريا إلى حد ما .

ومن خلال عصر العظمة التركية ، استعاد العالم الإسلامي عسكرية جديدة وشرع المسلمون في جهاد جديد ، أدى إلى مكاسب إقليمية هامة بعضها بارز جداً . وكان أول فتح تركي رئيسي على حساب المسيحية هو فتح شرق ووسط الأناضول ، ذلك الحصن المنيع للامبراطورية البيزنطية الذي شكل لفترة طويلة من الوقت عقبة رئيسية أمام تقدم المسلمين . وفي أواخر القرن الحادي عشر حول الأتراك السلاجقة الأناضول ، عن طريق الفتح والاستقرار ، إلى أرض تركية ومسلمة ، تلك الأراضي التي أصبحت فيما بعد الطريق لانطلاق ثاني فتح[*] إسلامي مهم لأوروبا .

ولكن في الوقت نفسه كان المسلمون أنفسهم قد غزاهم ، وهزمهم عدو جديد قادم من الشرق ؛ ففي السنوات الأولى من القرن الثالث عشر نجح زعيم المغول الذي عرف فيما بعد باسم جنكيز خان - بعد صراع مرير - في توحيد قبائل منغوليا الرحالة المحاربين ، ودفعهم في حملة واسعة وبمجئ عام ١٢٢٠ م كان كل وسط آسيا تحت

(*) لاحظ أن الترجمة الحرفية لعبارة المؤلف « غزوة إسلامية خطيرة لأوروبا » . وقد رأيت أن تكون كما وضعناها في النص المترجم حتى تتسق مع المفهوم الإسلامي . (المترجم) .

سيطرته ، وفي العام التالي عبر المغول نهر جيحون ، وشرعوا في فتح إيران ، إلا أن موت جنكيز خان في عام ١٢٢٧ م أدى إلى فترة هدوء قصيرة ، وسرعان ما أصبح خليفته - الخان الجديد - مستعداً لاستئناف الغزو . وما أن حل عام ١٢٤٠ م حتى فتح المغول غرب إيران وتقدموا صوب جورجيا وأرمينيا وشمال بلاد ما وراء النهرين ، وفي عام ١٢٤٣ م التقوا بقوات سلطان الأناضول السلجوقي التركي وتغلبوا عليها .

وفي منتصف القرن الثالث عشر قام المغول بتخطيط وتنفيذ تحرك جديد تجاه الغرب ، فقام الأمير هولاكو حفيد جنكيز خان بعبور نهر جيحون بأوامر من الخان الأكبر ، وذلك لفتح كل أراضي الإسلام حتى مصر . وفي غضون أشهر قليلة أغار الخيالة المغول ذوو الشعر الطويل على بلاد فارس وتغلبوا على كل مقاومة قابلتهم . وفي يناير عام ١٢٥٨ م اقتربوا من مدينة بغداد ، وعصفوا وسلبوا وأحرقوا عاصمة الخلافة القديمة ، وفي العشرين من فبراير عام ١٢٥٨ م قدم آخر خليفة مسلم ومعظم أفراد عائلته الموجودة في بغداد للموت . ولأول مرة منذ أيام الرسول ﷺ يقوم شعب غير مسلم بغزو قلب الأراضي الإسلامية محطماً هيبة الخلافة التاريخية الكبرى ومقيماً حكماً وثنياً على المؤمنين ، وفي مصر فقط تماسك السلاطين المماليك بثبات وحالوا دون دخول المغول إلى قارة أفريقيا ، ولكن استمر تحرك المغول تجاه الشمال ، فتحركوا صوب غرب وسط آسيا ، واتجه جنودهم شمالاً ، وتركوا أيضاً جنوب بحر قزوين والبحر الأسود وفتحوا الجزء الأكبر من روسيا ، ووصلوا إلى حدود بولندا والمجر وحتى سيليزيا . وفي الأجزاء الواقعة شمال البحر الأسود وضع المغول لأول مرة كياناً سياسياً لشعوب الإستبس ، ومعظم هؤلاء كانوا من الأتراك الذين استوطنوا المنطقة . وبعد وقت قليل نسبياً اعتمد حكام المغول بصورة قوية على الكثرة العددية لرعاياهم الأتراك ، الذين سبقوهم في الهجرة صوب الغرب . وفي الوقت الذي أهمل فيه المغول لغتهم بدأوا يتحدثون باللغة التركية ، واندمجوا مع الأتراك .

ولقد كان هذا الأمر هاماً بصفة أساسية بالنسبة لشعوب الإستبس في شرق أوروبا ؛ حيث شكلت القبائل التركية جزءاً هاماً من السكان . وعرف الشعب الذي نتج من

السكان الأتراك المغول باسم التتار ، وهو الاصطلاح الذي يشير فحسب إلى مجموعات معينة من بين الأتراك المغول ، ولكنه غالباً ما يستخدم بصورة كبيرة لتمييزهم ، وتعرف فترة سيطرتهم في تاريخ روسيا بحكم التتار (سيطرة التتار) . وبعد أن تحطمت إمبراطورية الخانات الكبار ، قسمت أقاليم تلك الإمبراطورية إلى عدد من الدويلات الصغرى حكم كلاً منها مجموعة من الخانات ينحدرون من سلالة جنكيز خان . ولقد عرفت دولة المغول في شرق أوروبا وفي روسيا ، وكذلك في الاستخدام الأوروبي باسم « خانات » القبيلة الذهبية The golden Horde وبحلول أواخر القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر اعتنقت القبيلة الذهبية الإسلام ، وسيطرت دولة مسلمة تركية على كل شرق أوربا من البلطيق إلى البحر الأسود ، ومارست سلطتها على أمراء موسكو والحكام السلافيين الآخرين . وفى القرن الخامس عشر دب الضعف فى خانات القبيلة الذهبية ، وسقطت نهائياً في عام ١٥٠٢ م مفسحة الطريق أمام خانات أصغر ، أسست على جزر قازان وأسطراخان والقرم . وقد حدد هذا نهاية العظمة الإسلامية في شرق أوروبا وفتح الطريق للنهضة . وفي نهاية الأمر سيطر أمراء موسكو .

واستطاع المغول في أقصى الجنوب توطيد نفوذهم في إيران والعراق وتمكنوا من السيطرة على دولة السلاجقة في الأناضول ، ومع ذلك لم يمكنهم التغلب على الامبراطورية الإسلامية التي أقيمت في مصر ، والتي كان يمثلها سلاطين المماليك . ولإنهاء صراع الحياة والموت مع مصر ، بدأ حكام إيران والمغول في النظر صوب الغرب للتحالف ضد العدو المشترك . ففي أوروبا لبى أمراء المسيحية بحذر وحماس ، فكرة الصليبية الجديدة ، ولكنهم في هذه المرة تحالفوا مع قوة كبيرة غير مسلمة خلف الامبراطورية الإسلامية التي أصبحت تحارب على جبهتين ، ولفترة من الوقت كان هناك نشاط دبلوماسى بين بلاط الخانات المغول والأمراء في أوروبا المسيحية ، وحضر رسل المغول ، ومعظمهم من المسيحيين الشرقيين ، إلى روما وفرنسا ووصلوا حتى انجلترا ؛ حيث أبدى الملك الإنجليزي إدوارد الأول (١٢٧٢ - ١٣٠٧م) بعض الاهتمام بمشروع التحالف المغولي . وفي الوقت نفسه زار الرحالة والتجار والدبلوماسيون والمبشرون

المسيحيون الأوروبيون أقاليم الخان الأكبر الفارسية ، وبعض آخر منهم مثل ماركوبولو المشهور استفاد من السلام المنغولي ورحل عن طريق البر عبر آسيا إلى منغوليا والصين .

ومع تحطيم سلطنة الأناضول السلجوقية المعروفة بسلطنة الروم السلاجقة ، توقف جهاد الأتراك السلاجقة في الغرب ، واستأنف العثمانيون وهم ورثتهم ، الجهاد . بدأت الدولة العثمانية إمارة على الحدود ، وهي واحدة من الدويلات العديدة اللاحقة لسلطنة السلاجقة في الأناضول ، وتنسب إلى عثمان أول حاكم عثماني ، وقد حكم طبقاً للروايات من عام ١٢٩٩ م حتى ١٣٢٦ م .

ولقد ظهرت أول دولة عثمانية على الحدود بين الدولة الإسلامية المسيحية في الأناضول ، وكان حاكمها يلقب برئيس الحدود ، وفي بعض الأحيان كان يلقب بـ « قائد الغزاة » وهو المدافع عن الحدود في الحروب المقدسة ، وهناك شاعر تركي من القرن الرابع عشر كتب قصة عن الدولة العثمانية تعد من أوائل المصادر التاريخية العثمانية ، وفيها يحدد « الغازي بأنه أداة ديانة الله . . ومكنسة الله التي تنظف الأرض من قذارة الشرك وسيف الله اليقين » [٩] ومع مرور الوقت وبتقدم الجيوش العثمانية ، ونتيجة للازدياد الكبير للقوة العثمانية تطورت الإمارة إلى دولة ، والدولة إلى امبراطورية ، ولكن ظلت الإمبراطورية العثمانية مجتمعاً منظماً تتغلغل فيه أصول الدعوة للجهاد مع إدراك لحقيقتها .

ولقد كانت أوروبا فريسة للعثمانيين في تلك الحرب المقدسة ، وحقيقة الأمر أن كثيرين من المسلمين الآخرين نظروا إلى نفس الطريق مثلما كان ينظر أهل أوروبا إلى الأمريكيين في الفترة من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر . فخلف الحدود الشمالية والغربية تقع أراضي غنية سكانها همج ، ولقد كان هدف دعوتهم المقدسة فرض ديانة وحضارة ونظام وسلام في أثناء فترة جني الغنائم الأولى من الأشخاص على الحدود المعتادة ، ولقد أدى التوسع العثماني إلى حدوث تغيرات عميقة ، سواء في داخل الامبراطورية العثمانية أو في الإمارات العثمانية التي تقع خلف الحدود .

وفي مرحلة التوسع اعتبر السلاطين العثمانيون أنفسهم خلفاء شرعيين للأباطرة البيزنطيين ، وظهر هذا الادعاء حتى في اللقب الذي استخدموه بصورة شائعة وهو

سلطان الروم (أي سلطان روما) . وبالاستيلاء على القسطنطينية في عام ١٤٥٣ م عرف السلطان محمد الثاني منذ ذلك الوقت بالفاتح ، وأضاف جوهرة في أعلى التاج السلطاني وقد جمع بين يديه وتحت سيطرته جزئي الإمبراطورية القديمة في آسيا وأوروبا وأصبحت عاصمة الامبراطورية القديمة مركز حكومته .

ومما لا يثير الدهشة أن المؤرخين الأتراك قدموا كثيراً من التعليقات عن فتح القسطنطينية. ومن أقدم القصص البسيطة والمباشرة ، التي يرويها أحد المؤرخين القصة التالية :

« كانت مدافع أدرنة الكبيرة مثل العثمانيين مجنحة ، وكانت ملقاة ، وجهزت البنادق وترك السلطان محمد أدرنه متجها إلى اسطنبول وأحضر معه تلك المدافع ، وعندما نصب المدافع بدأت في القصف من كل جانب ، حطمت أبراج وحوائط وتحصينات اسطنبول ، ولم يستطع المشركون في الداخل الحصول على النصر الذى حاربوا من أجله . وكان حاكم اسطنبول شجاعاً ولم يطلب أي رحمة - ويقال وفقاً لما كتبه الكهنة في الأناجيل أن المدينة لا يمكن الاستيلاء عليها ، فأقام مصدقاً كلماتهم المدافع والبنادق على كل جانب للدفاع عن الأبراج . على حين أن رجاله انطلقوا إلى قلب البرج ، وكانوا يقولون كل أنواع السخافات وبذا فهم كفروا بعقاب الله حيث لا يؤمنون بالرسول ، وتحدثوا بكلمات فارغة . وبسبب افتخارهم بأنفسهم أنزل الله القدير تلك المصيبة عليهم ، ولقد قال السلطان محمد بن السلطان مراد الذي حركته النخوة « إنه في سبيل الله » وقاد السلب ، ووجد الغزاة مقيدين بقوة على كل جانب من الطريق من خلال ثغرات في الحصن أحدثتها المدافع ، وقتلوا المشركين في الحصن بالسيف ، وكان الطريق مفتوحاً لبقية الجنود ، وانطلقوا عبر الخنادق وأقاموا سلالم وقاموا بوضع تلك السلالم إلى أعلى حوائط الأبراج وتسلقوها ، وبوصولهم إلى البرج قاموا بتحطيم المشركين الذين كانا في الداخل ودخلوا المدينة ، واستباحوها واستحوذوا(*) على ممتلكاتهم ، وجعلوا بناتهم إماء وأبنائهم عبيداً . لقد أصدر

(*) يلاحظ القارئ أن المؤلف يأتي بنصوص من التركية والفارسية وغيرها ويترجمها إلى الإنجليزية بصورة فيها بعض التجاوز ، وقد حاولنا في كثير من المواضع أن نرجع إلى النصوص الأصلية ، لكن افتقدنا أكثر النصوص التي نقلت عن التركية والفارسية (المترجم) .

السلطان محمد أوامر وأباح المنازل ، وبهذه الصورة استولوا على كل ما يمكن الاستيلاء عليه .

ولقد أخذ المسلمون كثيراً من الغنائم حتى الثروة التي تجمعت من اسطنبول منذ إنشائها ، قبل أن تصبح من نصيب الغزاة بـ ٢٤٠٠ سنة استبيحت لمدة ثلاثة أيام ، وقد تم الاستيلاء على اسطنبول في الثلاثاء الموافق ٢١ من شهر رجب عام ٨٥٧ هـ الموافق ٢٩ مايو ١٤٥٣ [١٠] .

هذا النوع من القصص الذي كتب باللغة التركية للناس البسطاء ، أثر في نظرة الغزاة الخارجية للحدود ويقدم التاريخ العثماني الرصين في القرن السادس عشر صوراً مختلفة إلى حد ما ؛ فيقول أحد المؤرخين « لقد تحولت تلك المنطقة الواسعة القوية الرفيعة من وكر بوم يسير على غير هدى إلى عاصمة المجد والشرف ، من خلال الجهود النبيلة للسلطان محمد الذي استبدل الصوت المنكر لأجراس المشركين ، الذي يشوبه الخزي ، وأحل مكانه دعوة الإسلام للصلاة . ولخمس مرات تكررت الترنيمة الحلوة عن صدق العبادات المجيدة التي تملأ آذان الناس وقت اجهات بنفحة الدعوة للصلاة . لقد أخليت الكنائس التي كانت داخل المدينة من تماثيلها القبيحة ، وطهرت من شوائبها القذره المتعلقة بعبادة الأصنام وطمست صورهم ، وصارت روضة من رياض الجنة بتحولها إلى جوامع للتقوى ، واندفع شعاع الإسلام بعيداً إلى جحافل الظلام من المكان الذي كان لفترة طويلة مأوى للمشركين من الطبقة الدنيا . وبددت آثار إشعاع الحق ظلام الباطل . وفي كلمة واحدة أصبح السلطان المحظوظ رئيساً لحكومة تلك المنطقة الجديدة [١١] . وحيث أن القسطنطينية كانت عاصمة ، فقد كان من الطبيعي للوريث المسلم للوثنية ولروما المسيحية أن ينظر تجاه الغرب ليرقب الخطوات التالية . وكانت القوات العثمانية تتقدم صوب طرفي الأدرياتيك . ففي الطرف الشمالي ، كان الفرسان العثمانيون يغيرون على فينيسيا بقيادة « جديك أحمد باشا » القائد الأعلى للأسطول من فالونا Valona في ألبانيا ، واستولت تلك القوات على الميناء الإيطالي أوترانتو Otranto وفي الربيع التالي جمع الباشا قوة عسكرية جديدة بهدف تدعيم نقطة حكمه ، لتوسيع الفتوحات العثمانية في إيطاليا .

"في عام ٨٨٤ هـ (كما يذكر التاريخ) أبحر جديك أحمد باشا بأسطول كبير جداً إلى شبه جزيرة أبوليا ، وعند وصوله إلى هناك بعون الله ، علم باهتمام السلطان ، بحصن أبوليا الذي يشبه حصن القسطنطينية ، وقام بفتح أقاليم كثيرة . وأصبحت معابد الوثنيين جوامع إسلامية ؛ حيث كانت تسمع الصلوات الخمس التي تشهد لمحمد ﷺ بالرسالة " (١٢) .

لكن بموت السلطان محمد الفاتح حدث إحباط لمخطط الباشا وبكلمات مؤرخ تركي متأخر قليلاً :

" حتى الوقت الذي انتقل فيه السلطان إلى العالم الآخر ، قفل جديك أحمد باشا من أبوليا ، وبدأ في فتوحات بالغة العظمة ، وبعد موت السلطان محمد ذهب جديك أحمد للترحيب بالسلطان بايزيد . وكان أن استعاد الوثنيون أبوليا في نهاية الأمر ، أما عن المسلمين الذين ماتوا هناك فقد مات بعضهم ، وهرب بعض آخر بعد ألف شدة " (١٣) .

وفي غمار الصراع على الخلافة بين السلطان بايزيد الثاني الجديد وأخيه انسحبت القوات العثمانية من أوترانتو ، وأجلت خطة فتح إيطاليا ثم أهملت في نهاية الأمر . وأما الاسترخاء الذي حدث بعد ذلك بسنوات قليلة في عام ١٤٩٤ - ١٤٩٥ م فقد مكن الفرنسيين من فتح الدويلات الإيطالية واحدة بعد الأخرى بدون أدنى مقاومة تقريباً ، وهذا ما يدفع على الاعتقاد بأن الأتراك كانوا مصرين على تنفيذ مخططهم بفتح كل إيطاليا أو معظمها دون صعوبة . أما الفتح التركي لإيطاليا في عام ١٤٨٠ م ، إبان عصر النهضة ، فقد حول تاريخ العالم تماماً . ولكن بالرغم من أن إيطاليا تركت بدون فتح ، فإن الشعور العثماني بالدعوة للإمبراطورية ظل قوياً ، وتقدمت الجيوش العثمانية بعيداً إلى أوروبا .

وكان هدف تلك الجيوش التقدم إلى أبعد ما يمكن ، ومنذ القرن السادس عشر وفيما بعد ذلك ، ظهرت إشارات متكررة ، في المصادر التركية إلى المدينة المنعزلة أو الأسطورة المسماة Kisil-elma أو التفاحة الحمراء Red Apple . وبالتأكيد فإن هذا

الإسم مستمد من وجود قبة ذهبية على كنيسة كبيرة توجد في تلك المدينة . وكانت مدينة التفاحة الذهبية الهدف النهائي للفتح التركي المسلم . وكان الاستيلاء عليها يمثل نهاية الجهاد ، الانتصار النهائي للإسلام . ولقد كانت تلك المدينة تتطابق في العوالم المسيحية المختلفة التي كانت هدفاً للجيوش التركية ، فأولاً كانت القسطنطينية ثم بودابست ، وبعد ذلك - وفي أوقات مختلفة - فيينا وروما . وحقيقة الأمر أن الأتراك جعلوا القسطنطينية مدينتهم ، وسيطروا على بودابست لمدة قرن ونصف ، وقد قاموا بحصار فيينا مرتين ، ويبدو أنهم هددوا روما ذاتها .

وبمجيء عهد السلطان سليمان العظيم (١٥٢٠ - ١٥٦٦) عاشت الإمبراطورية العثمانية أوج قوتها . ففي أوربا كانت الجيوش العثمانية ، التي كانت تحكم اليونان والبلقان تتقدم عبر المجر لحصار فيينا في عام ١٥٢٩ م . وفي الشرق اعترضت السفن الحربية العثمانية البرتغاليين في المحيط الهندي ، وفي الغرب استسلم الحكام المسلمون في شمال أفريقيا - ما عدا مراكش - للسيادة العثمانية . هكذا جاءت القوة البحرية المسلمة إلى البحار الغربية حتى الأطلنطي ، وأغار القراصنة من شمال أفريقيا على الجزر البريطانية .

ومرة أخرى ، وكما حدث في الفترات المبكرة ، بدا واضحاً أن تقدم الإسلام يمثل تهديداً مميتاً بالنسبة للمسيحية . لقد انتهت الحرب الصليبية واحتل الجهاد مكانته (ولقد عبر ريتشارد كنولس Richard Knolles وهو أحد المؤرخين الذين ينتمون للعصر الإليزابيثي بقوله إنها « الرعب الحالي للعالم » [١٤] حتى أنه في أيسلندا وهي البلد البعيد كان الكتاب اللوثرى للعبادة العامة المستخدم في الكنائس يتوسل لإنقاذ المسيحيين من « مكر البابا ورعب الأتراك » وهذا الرعب الأخير لم يكن خوفاً يمكن رؤيته بظهور القراصنة المتوحشين في عام ١٦٢٧م في أيسلندا ؛ حيث حملوا من هناك عدة مئات من الأسرى لبيعها في أسواق العبيد في الجزائر .

لقد كانت انتصارات سليمان العظيم علامة على المد التركي ، وبداية للجزر في نفس الوقت ، فانسحبت الجيوش العثمانية من فيينا ، كما انسحب الأسطول العثماني من المحيط الهندي .

ولفترة من الوقت كانت واجهة القوة العسكرية العثمانية ، التي لا تزال قوية ، تخفي وراءها انهيار الدولة والمجتمع العثماني ككل . ففي المجر واصل الأتراك والمسيحيون الحرب في معارك لم تحسم ، وفي أواخر عام ١٦٨٣ م استطاع الأتراك القيام بمحاولة ثانية للاستيلاء على فيينا ، إلا أن هذا تأخر كثيراً ، في هذه المرة كانت هزيمتهم حاسمة . وفي بعض المناطق الأخرى من العالم ، خاصة إفريقيا الاستوائية وجنوب شرقي آسيا ، واصل الإسلام تقدمه على الرغم من أنه في أوروبا قاسى المسلمون من انتكاسة حاسمة أخفتها الانتصارات العثمانية وأجلتها لفترة ، ولكن هذا لم يمنع من حدوث الانتكاسة ، وكان الرد المسيحي الأوروبي على الجهاد الأكبر الأول هو إعادة الفتح والصليبية مرة أخرى . ولقد عرف الرد على موجة التقدم الإسلامي الثاني بتلك الحملات الأوروبية ، التي عرفت بالإمبريالية وبلغت ذورتها آنذاك . بدأت تلك الحملات في طرفي أوروبا في الأقطار التي حكمها الإسلام سابقاً في شبه جزيرة أيبيريا روسيا ، وهذا لا يثير الدهشة ، ثم انتشرت بعد ذلك حتى ابتلعت العالم الإسلامي تقريباً .

وفي عام ١٤٩٢ م استولت جيوش فرديناند وإيزابيلا على آخر معقل إسلامي في إسبانيا ، وبعد ذلك كانت الضربة الأوروبية مستمرة بصورة قوية . واكتمل إعادة الاستيلاء على البرتغال في عام ١٢٦٧ م تقريباً قبل قرنين ونصف من إعادة الاستيلاء على إسبانيا . وفي عام ١٤٠٥ م استولى البرتغاليون على الساحل الشمالي لمراكش ، وهكذا انتقلت الحرب إلى معسكر الأعداء . وخلال القرن السادس عشر قام البرتغاليون بمجهود هام ، حين دعّموا نفوذهم في مراكش واحتلوا في فترة وجيزة طنجة والدار البيضاء ولكن انتهت مهمة البرتغاليين على أرض شمال أفريقيا بهزيمتهم على أيدي المراكشيين في معركة القصر الكبير The battle of al-qasr- al Kabir عام ١٥٧٨م.

أما الأسبان فقد اتبعوا حكامهم السابقين الأوائل في إعادة الفتح من أوروبا إلى إفريقيا ، وفيما بين الأعوام ١٤٩٧ م و ١٥١٠ م . . استولى الإسبان على عدد من المناطق التي على ساحل إفريقيا الشمالي من مليلة في مراكش شرقاً وحتى طرابلس ؛

إلا أن هذه المهمة لم تسفر عن شيء تماماً مثل مهمة البرتغاليين . على أية حال كان هدف هؤلاء محدداً ، وتمثل في منع كل محالات الاستعادة الإسلامية ، والعودة للإسلام ولحماية شواطئهم وسفنهم من القراصنة المسلحين . وحيث أن القوة العثمانية البحرية بدأت في الإشراف على البحر المتوسط . . فإن الإسبان أهملوا محالات الإغارة على شمال أفريقيا ، وكما فعل البرتغاليون ، فقد اهتموا بالتحكم في نقاط قليلة قوية ، أصبحت بالنسبة لهم حاميات صغيرة .

أما الضربة الغربية المضادة فقد جاءت ضد الشرق من جهة أخرى ، فعندما وصل « فاسكودى جاما إلى كاليكاتا قال إنه جاء للبحث عن المسيحيين والتوابل » وكان هذا ملخصاً واضحاً للحركات التي أرسلها البرتغاليون .

ربما ألقى الظل على التسويات الملائمة للجهاد الذي يرجع إليه - إلى حد ما - التأخير الطويل لاستجابة الرحلات البرتغالية كما كان التعاطف بين الصراع المسيحي والبرتغاليين الذين أبحروا إلى الشرق قوياً ، وكان ينظر إلى الرحلات الاستكشافية على أنها حرب دينية ، واستمرار للحملات الصليبية وإعادة للفتح ، وعلى أنها أيضاً موجهة ضد نفس العدو . أما في المياه الشرقية فقد أنهى الحكام المسلمون في مصر وتركيا وإيران والهند ، الذين كانوا آنذاك ، كل الخصومات الرئيسية مع البرتغاليين وجاءت شعوب بحرية أخرى أحكمت السيطرة الأوروبية في إفريقيا وجنوب آسيا ، تلك السيطرة التي دامت حتى القرن العشرين .

استطاع الأوروبيون قتال بعضهم على ميادين المعارك الشرقية من خلال الأمان ، ويرجع هذا إلى الامتياز المناسب للقوى المحلية ، وأصبح واحداً من تلك الحوادث شهيراً . ففي عام ١٦٢٢ م قام الجيش الفارسي ، بمساعدة الإنكليز ، بطرد البرتغاليين الذين سيطروا على مضيق هرمز في الخليج العربى(*) ، وتجد صدى هذا الانتصار منظوماً في شعر غنائي فارسي ، كما برر مؤرخ فارسي معاصر هذا التحالف بقوله : « لقد

(*) يلاحظ القارئ هنا أن المؤلف اندفاعا وراء تعصبه ومقته للعرب والمسلمين يستخدم عبارة « الخليج الفارسى » وقد رأينا وضع العبارة وضعا صحيحا بما يتفق والواقع . إن قراءة أعمال لويس المتعددة تطلعنا على مثل هذه الزلات التى يقصد من ورائها ازكاء روح التعصب الشعوبية (المترجم) .

تغير الوضع الآن بسبب ما أقدمت عليه مجموعة من الإنكليز حين قدموا أنفسهم في الفترة الأخيرة للبلاط ، وذكروا أنه عندما يرغب الشاه في إعادة الاستيلاء على هرمز ، فهم على استعداد لمساعدته بفرق عسكرية . وأوضحوا للشاه أنهم أعداء للبرتغاليين ، وأن العداء المشترك بينهم أساسه الاختلافات الطائفية ، وبعد إعادة الاستيلاء على هرمز ذكروا أن السفن الموجودة في الموانيء الأخرى التي تحت السيطرة الإنكليزية سوف تضمن عدم عودة البرتغاليين . ولقد قرر الشاه عباس قبول عرض المساعدة الذي قدمه الإنجليز " ويستمر في القول : " بالرغم من أن مياه البئر المسيحية غير نقية فهى لا تغسل إلا اليهودي الميت ، فما الخوف من هذا ؟ [١٥]

وفي مؤلف صدر عام ١٥٨٠م حذر جغرافي عثماني السلطان من الأخطار التي تواجهها الأراضي الإسلامية ، ومن اضطراب التجارة الإسلامية نتيجة لإقامة الأوروبيين على شواطئ أمريكا والهند والخليج العربى ، وتقول كلمات النصيحة للسلطان :

" دع القناة تحفر من البحر المتوسط إلى السويس [*] ودع الأسطول يكون مستعداً في ميناء السويس بعد ذلك ليستولي على موانيء الهند والسند ، وسوف يصبح من السهل طرد المشركين بعيداً ، وجلب منتجات تلك البلدان القيمة لعاصمتنا " [١٦] .

ولسوء حظ العثمانيين . . فإن نصيحة الرجل التي تمت مبكراً فعلاً عن طريق أهل البندقية لم تتبع ، وبدلاً من أن يصل كل من السلطان العثماني وخصمه المسيحي ملك إسبانيا إلى هدفه حارب كل من الملكين أعداءه ، فإن السلطان التركي كان ضد الشيعة الإيرانيين ، كما كان الملك الإسباني ضد البروتستانت شمالي أوروبا ، ولم تفتح قناة السويس إلا بعد قرون لاحقة ، وخدمت بعد ذلك أغراض واحتياجات إمبراطورية مختلفة . كما فشلت الحملات البحرية العثمانية إلى المحيط الهندي في القرن السادس عشر أمام سفن أسلحة البرتغاليين .

ونفس ما حدث من عودة الغزو والهجوم المضاد يمكن إيضاحه أيضاً في الدولة

(*) كما يلاحظ من النص فإن التفكير فى حفر قناة تصل بين البحر المتوسط والبحر الأحمر يرجع إلى القرن السادس عشر ، ومن ثم لم يكن هذا التفكير وليد القرن التاسع عشر وفرديناند ديلسبس (المترجم) .

الأوروبية الأخرى التي تم غزوها ، وحكمها المسلمون في العصور الوسطى ، وهذه الدولة هي روسيا ، وبالمقارنة بالحكم الإسلامي في إسبانيا لم تدم سيطرة العصر الذهبي إلا فترة قصيرة ، وكان تأثيرها محدوداً ، وعلى الرغم من ذلك فقد ترك التتار علامة بارزة في الذاكرة الروسية .

بدأ الغزو الروسي متأخراً نوعاً ما عن الغزو الأيبيري ، وفي عام ١٣٨٠ عندما هزم ديمتري دونسكوي التتار ، حين كان الأمير الأكبر لموسكو في موقعة « كوليكوفو Kulikovo » وبالرغم من مظاهر الاحتفاء بهذا النصر في التاريخ الروسي والرواية الروسية ، فإن هذا النصر لم يكن حاسماً ، فقد اتجه التتار بعد ذلك بعامين إلى الشمال مرة أخرى ، وخربوا الأراضي والبلاد الروسية ، واستولوا على موسكو وأعادوا فرض الضرائب . وحتى عام ١٤٨٠م سمحت التقسيمات بين المسلمين لقيصر موسكو العظيم إيفان أن يحرر نفسه من الضرائب والتبعية .

وتماماً كما هو الحال بالنسبة للإسبان والبرتغاليين ، ولكن بدون مقارنة إحراز النجاح . . انطلق الروس بعد أن نفضوا نير الاستعمار خلف حكامهم السابقين . وبعد موقعة وكفاح مرير وطويل ضد التتار في "الفولجا" انتهى الأمر باستيلاء الروس على "قازان" عام ١٥٥٢م ، وبعد هذا النصر الحاسم استطاعوا بدون مشقة أن يتقدموا عبر الطريق أسفل الفولجا ، واستولوا على ميناء مدينة "أسطراخان" في عام ١٥٥٦م ، وعندئذ سيطر الروس على الفولجا ووصلوا إلى بحر قزوين ، وبذلك تغلبوا على معظم مقاومة المسلمين في طريقهم إلى الجنوب ، وبدأوا بعد ذلك في التوجه مباشرة للهجوم على العثمانيين وكريميان على حدود التتار .

ولما تنبه العثمانيون للخطر ، حاولوا درءه وأعدت حملة كبيرة بهدف الاستيلاء على اسطرخان ، واستخدامها قاعدة دفاع للمسلمين . وكان جزءاً من الخطة حفر قناة تربط بين نهري "دون" و "فولجا" ؛ حيث يمكن من خلالها أن تتحرك الأساطيل العثمانية بين البحر الأسود وبحر قزوين مع حكام المسلمين في وسط آسيا ، ويمكنهم كذلك من تشييد حصن منيع ضد أي تقدم روسي جديد نحو الجنوب أو الشرق [١٧] ، ولكن فشل المشروع لم يؤد إلى شيء . وكان ملوك التتار في كريميان قادرين لوقت ما ، على صد

الهجمات الروسية والإبقاء على علاقاتهم مع السلاطين العثمانيين الذين قبلوهم باعتبارهم حلفاء .

ظل البحر الأسود في ذلك الوقت ، تحت سيطرة المسلمين الأتراك ، وكانت هناك بين "كريميان" و "اسطنبول" تجارة مهمة خاصة في السلع الغذائية والعبيد ، ذوي الأصل الأوروبي الشرقي ، ولكن الطريق أصبح مفتوحاً الآن بصورة أكبر لتقدم روسيا داخل آسيا .

وبينما أبحر التجار بالتجارة من أوروبا الغربية حول أفريقيا ، وأخفقوا في المدن الساحلية من آسيا الجنوبية وجنوب شرق آسيا ، كان الجنود الروس يتبعهم التجار الفلاحين قد تقدموا إلى البحر الأسود وبحر قزوين وجبال "بامير" Pamir وإلى المحيط الهادي أيضاً . وساعد الأوروبيين الشرقيين والغربيين في تغلغلهم داخل آسيا وإفريقيا تفوقهم العسكري والفني . ولم يواجه الروس مقاومة كبيرة في تقدمهم نحو الشرق ، وكانت السلطات الأوروبية الغربية مزودة بالسفن المجهزة والتسليح البحري ،الذي لا تستطيع دولة آسيوية أن تنازله .

وفي مكان واحد فقط في قارة أوروبا ، كانت الدولة الإسلامية ، وهي الإمبراطورية العثمانية - التي كانت لا تزال في تدهورها - وهي أقوى دولة إسلامية ، تقاوم بعناد شديد تقدم أوروبا المسيحية صوب "البلقان" و "إيجه" و "القسطنطينية" ، ولكن حتى أثناء مقاومة أوروبا وجد العثمانيون أنفسهم ينسحبون أمام التأثير الأوروبي انسحابا ، وأجبروا على ذلك لكي يدافعوا عن أنفسهم ويتبينوا عدداً من الوسائل والممارسات الأوروبية .

هذه التغيرات في حد ذاتها أجبرت المسلمين على إجراء تعديل مؤلم ، فبعد أن تعودوا النظر إلى بقية العالم من وجهة نظر دينية حقيقية ، وجدوا أنفسهم الآن في موقف يكتسب فيه الكفار المحترقون قوة وثباتاً . ومن وجهة نظر المسلمين للتاريخ كان المسلمون هم حاملي نداء الله ، وعليهم واجب مقدس يتمثل في هداية البشرية .

وبيت الإسلام الذين كانوا هم أنفسهم جزءاً منه ، اعتبر داخلاً ضمن غرض الله

على الأرض . وكان حكام المسلمين هم خلفاء النبي ﷺ وحماة الرسالة التي تلقاها من الله ، وكانت دولة الإسلام هي القوة الوحيدة الشرعية والحقيقية على الأرض ، كما كان المجتمع الإسلامي وحده هو مصدر تلك الحقيقة ، ومنبع التنوير والثقافة التي أحيطت من كل ناحية بظلام الهمجية والكفر الخارجي .

وكان فضل الله على مجتمعه هذا أن سخر له القوة ، ومنحه الانتصارات في ذلك العالم ، هكذا كان الأمر ، وكان كذلك دائماً منذ أيام الرسول ﷺ .

هذه المعتقدات الموروثة منذ أيام المسلمين الأولى دعمها عن اقتناع الخلفاء العثمانيين العظماء في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وأحيتها الانتصارات العابرة(*) والهامة التي حققها المسلمون في القرن الثامن عشر .

وكان من الصعب على المسلمين أن يكيفوا أنفسهم في عالم لم تكن مجريات الأحداث فيه تسير بقوة الإسلام ، بل كانت تسير عن طريق خصمهم المسيحي ، عالم كان فيه إحياء الدولة الإسلامية يعتمد أحياناً على المساعدة ، أو على الإرادة القوية لبعض الحكام المسيحيين .

وبينما كان فرسان روسيا وسفن البرتغاليين الشراعية تهدد الأراضي الإسلامية من ناحيتي الشمال والجنوب . . كانت أراضي وسط آسيا عبر الشرق الأوسط حتى شمال افريقيا لا تزال محافظة على استقلالها . وفي فترة التوسع الأوروبي الممتدة من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر بزغت خمسة مراكز سياسية في العالم الإسلامي ؛ ففي الهند ووسط آسيا وإيران والامبراطورية العثمانية وشمال افريقيا كانت للمسلمين - رغم أنهم يشكلون نسبة قليلة من السكان - سيادة سياسية . وفي القرن السادس عشر أسس أحد الدخلاء من وسط آسيا في الهند فصلها النهائي ، ولقد انتهت تلك السيادة في نزال مصيري حاسم مع الأوروبيين الغربيين .

وفي أقصى الشمال من وسط آسيا ، كان سقوط منغوليا الداخلة في الإسلام ،

(*) يستخدم المؤلف في هذا السياق تعبير الانتصارات العابرة ليقلل من شأن الفتوحات الإسلامية لكثير من دول أوربا وأسيا ، حيث يرى أنها استيلاء وليست فتحًا (المترجم) .

والتي كانت تحكم هذه الأراضي بعد سقوط مجموعة دويلات إسلامية في المنطقة الواسعة بين بحر قزوين والصين . وهذه الدويلات واجهت التقدم الأوروبي ، ولكن في هذه المرة كان التقدم بالأسلوب الروسي ، وقد هزمت بهذا الأسلوب وانضوت تحت لواء الإمبراطورية الروسية .

وفي الطرف المقابل من العالم الإسلامي في شمال افريقيا ، ظلت مراكش لقرون عديدة تتمتع بحكم مستقل في حين خضعت الجزائر وتونس وليبيا للعثمانيين ، ولكن كان يحكمها حكام محليون . ثم خضعت كل هذه الدول في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين للإمبراطوريات الفرنسية والإسبانية والإيطالية . دولتان وحيدتان نجحتا في إحياء الإسلام العالمي ، هما : تركيا وإيران ، وبرغم أن استقلالهما كان مهدداً أحياناً غالباً ما كان ينال منه فإنهما لم تفقداه تماماً .

وبعد هجمات البرتغاليين الأولى ، كانت أنشطة الأوروبيين الغربيين في آسيا تجارية أساساً ، وتتعلق بالملاحة ، وأدت تلك الأنشطة تدريجياً إلى إقامة سلطة سياسية . وحتى ذلك الوقت : كان هذا مقصوراً بشكل أساسي على جنوب وجنوب شرقي آسيا وشرق إفريقيا ، وأثر ذلك في الشرق الأوسط ، ولكن بطريق غير مباشر . أما في الأراضي والدول الوسطى فكانت الاهتمامات السياسية والاستراتيجية لقوى الغرب ، ذات أثر أقل من تلك الاهتمامات الخاصة بقوى أوروبا الشرقية والوسطى .

ومع ذلك فإن اتحاد البرتغاليين ، ومن بعدهم الإنكليز ، مع القوى الهولندية في آسيا وإفريقيا ، كان يعني أن الشرق الأوسط - أي إيران والإمبراطورية العثمانية - قد أحاط به الروس عبر الحدود الشمالية والأوروبيون القريبون من كل جانب . وقد كان ذلك إحاطة فعلية لا كما شاع الاعتقاد ذات مرة أنها ملاحة دورية للبرتغاليين في إفريقيا ، وقد أدى ذلك إلى تخفيض وتحويل تجارة التوابل ، هذه التجارة التي كانت تمر عبر البحر الأحمر والخليج العربى إلى البحر المتوسط وأوروبا ، وكانت تثرى الشرق الأوسط في طريقها ، ولقد تحولت تلك التجارة الآن إلى طريق المحيطات التي يتحكم فيها الغربيون في كل جانب منها .

كانت هذه التغييرات بطيئة ولم يتضح تأثيرها على وجه السرعة . ولكن نلاحظ أن

السفير الرسمي في اسطنبول ، « أوجير » Ogier Ghieselin de Busbecg ، في خطاب حدده عام ١٥٥٥م ، يشكو من أن الأوروبيين كانوا يبددون جهودهم في البحث عن الغنائم والذهب في مناطق شاسعة من المحيطات ، في حين كان الأتراك يهددون وجود المسيحية الأوروبية [١٨] .

وحتى في القرن السابع عشر المتأخر لم يتلاش التهديد ، ففي عام ١٦٨٣م قام الأتراك بمحاولتهم الثانية والأخيرة للاستيلاء على فيينا . وبعد عدة أسابيع اضطرت الجيوش العثمانية إلى ترك الحصار ، ولم يمض وقت طويل حتى انسحبت فوراً ، ويطلعنا مؤرخ عثماني معاصر على هذه القصة بإيجاز وصدق قائلاً : أسر أحدهم وتم استجوابه ، فقال إن الإمبراطور النمساوي بعث خطابات إلى كل مكان ينشد العون من كل ملوك المسيحية ، وإن ملك بولندا وحده ، الملك الخائن الملعون المدعو سبيسكي هو الذي جاء لمساعدته شخصياً بقوات وجنود من ليتوانيا ، وكان تعداد قواته ٣٥ ألفاً من الفرسان والمشاة البولنديين الكفار . وبعث الإمبراطور النمساوي رجاله مع هذه الإمدادات من استطاع أن يحصل عليهم من بقية المسيحيين من فرسان ومشاة وكونوا جميعهم ٨٥ ألفاً من الألمان ، و ٤٠ ألفاً من الفرسان ، و ٨٠ ألفاً من المشاة ، وتجمع هؤلاء في هذا المكان ، ويقال إنهم كانوا يشنون الهجوم على الجنود المسلمين الذين كانوا في خنادق حول فيينا » [١٩] .

ولم يحاول الحاكم العثماني أن يخفي المصيبة أو الكارثة التالية : « . . . كل شيء كان في معسكر القيادة العثمانية من مال وعتاد وأشياء ثمينة تركوه خلفهم ، ووقع في أيدي شعب الجحيم. وقد جاء الكفار الملاعين في صفين . وكان أحد الجيوش يتقدم عبر ضفة نهر الدانوب ودخل هذا الجيش الحصن وحطم الخنادق . أما الجيش الآخر فقد استولى على المعسكر القيادي للجيش . وقد قتلوا بعضاً وأسروا بعضاً آخر من هؤلاء الرجال الذين استسلموا وعثروا عليهم في الخنادق . أما الرجال الذين ظلوا في خنادقهم وهم حوالي عشرة آلاف ، فلم يكونوا قادرين على القتال وجرحوا بالبنادق والمدافع وبأحجار الخنادق وبأسلحة أخرى ، لقد فقد بعضهم ذراعه أو ساقه . واستطاع هؤلاء عندما وجدوا بضعة آلاف من الأسرى من زملائهم أن يحرروهم من قيودهم ويطلقوا

سراحهم . ونجحوا في الاستيلاء على مثل هذه الكميات من المال والمؤن بشكل لا يمكن وصفه . ولـذلك لم يفكروا حـتى في تعقـب جنود المسلـمين ، ولو كانوا فعـلوا ذلك لقابلوا أمراً عسيراً . ليحفظنا الله ، كـانت هذه هي صيحة النصر لهذه القوة ، التي لم يظهر مثلها منذ بداية ظهور الدولة العثمانية " [٢٠] .

ورغم أن محاولة الأتراك الأولـى لغزو فيينا في عام ١٥٢٥م كانـت غير ناجحة ، فإنها انتهـت بحال أرق بالنسبة للعثمـانيين باعتبارهم القوة المهـددة لقلب أوروبا . وأما الحصار والانسحاب الثاني في عام ١٦٨٣م . . فكان أمراً مختلفاً تمام الاختلاف ، وكان الفشل في هذه المرة واضـحاً ولا لبس فيه . فالانسحاب تتبعـه هزائم وفقدان للأراضي والمدن . والإحساس العثمانـي بهذه التغيرات عبرت عنه أغنية شـعبية في هذا الوقت ، وهي مرثية لفقدان "بودا" Buda التي عاود المسيحيون الاسـتيلاء عليها في عام ١٦٨٦م تقول الكلمات : "في المـساجد لم تعد هناك صلوات وفي المنابع لـم يعد هناك اغتسال لقد صارت الأماكـن الشعبية مهجـورة ، لقد استولى النمسـاويون على مدينتنـا الجميلة بودا" [٢١] .

ولقد لاحظ ضابط عثماني، كان قد زار بلغراد أثناء احتلالها على يد النمساويين ، أن الحكام الجدد قـد أحدثوا بعض التـغييرات في المدينـة ، وحولوا بعض المـساجد إلى ثكنات عسكرية، وبعضها الآخر إلى مستودعات ذخيرة . وكانت المآذن ما زالت قائمة ، ولكن في أحد المساجد أزيلت القبة وحولـت المئذنة إلى برج ساعة . وكذلك الحمامات ظلت قائمة غيـر أنها قلبت إلى مساكن . وحمام منزل واحـد فقط هو الذي ظل يؤدي وظيفته ، وأما المنازل والحوانيت التي كانت مـقامة على ضفاف نهر الدانوب فقد تحولت كلها إلى حانات خمر .

شكلت معاهدة السلام المعروفة بمعاهدة كارلوفيتز Carlowits والتي وقعت في ٢٦ يناير ١٦٩٩م ، نقطـة محورية هامة ، ليس فقط فيـما يتعلق بالعلاقات بين الـعثمانيين وبين حكام هـابسبرج Hapsburg ، ولكـن الأكثر من ذلـك أنها نقـطة محوريـة في العلاقات بين المسيحية والإسلام ، ولعدة قرون مضت كـانت السلطة العثمانية هي القوة القائدة للإسلام .

وبينما كانت القوة الحقيقية للإسلام بالنسبة لأوروبا قد انهارت من جوانب متعددة، فإن التغيير كان خفياً لمدة معينة عن المسيحيين والمسلمين على حد سواء . ولكن بعد الانسحاب من فينا ، وبعد الهزائم العسكرية والسياسية التي تلت هذا الانسحاب ، أصبحت العلاقات الجديدة واضحة لكلا الجانبين . وكانت أوربا لا تزال تعاني من مشكلة الأتراك ، ولكنها أصبحت الآن مشكلة الشكوك التي نشأت نتيجة لضعف الأتراك ، وليس من تهديد قوة الأتراك ، ولزمن طويل ظلت الكنائس تعتبر الإسلام الدين الخصم الخطير ، ولكنه لم يعد الآن يمثل تهديداً عسكرياً . وعلى الجانب التركي نجد علامات يقظة جديدة فالأراضي خلف الحدود لم تعد متسعة للبرابرة الجهلة لكي يستولوا عليها ويصبحوا عدواً خطراً وتهديداً لكل مستقبل الإمبراطورية .

وكان تهديد القوة الغربية واضحاً بالفعل مع مشارف القرن السادس عشر . يقول لطفي باشا - وقد كان موظفاً كبيراً عند سليمان العظيم : ذات يوم أخبر السلطان سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠) ، القائد المنتصر في الشام ومصر ، رئيس مستشاريه قائلاً : " إن هدفي هو غزو بلاد الفرنجة " وردّ عليه المستشار قائلاً "مولاي إنك تعيش في مدينة أحسن معالمها البحر ، وعندما يكون البحر غير آمن لن تأتي السفن ، وعندما لا تأتي السفن يذهب رخاء اسطنبول" . وأثار لطفي باشا الموضوع مرة ثانية مع سليمان وأخبره "أن كثيراً من السلاطين السابقين كانوا يحكمون الأرض ، ولكن قليل منهم الذين كانوا يحكمون البحر ؛ ففي نطاق الحرب في البحر الكفار يتفرجون علينا . وينبغي أن نتغلب عليهم" [٢٣] .

ولكن لم يتغلب الأتراك عليهم ، وعاد الدرس كرته حيث الهزيمة العثمانية الثقيلة في المعركة البحرية في لبانتو عام ١٥٧١ . وكانت الضربة قاسية ، ولم يحاول العثمانيون إخفاء تلك الضربة ، والوثيقة التركية التي تسجل تقريراً عن باي ليرباي Bey lerbey الجزائر تصف النتيجة بتعبير كلاسيكي أنيق كما يلي : واجه الأسطول الإمبراطوري أسطول الكفار البائس ، وسلكت إرادة الله مسلكاً آخر" [٢٤] . ولما كانت المعركة معروفة في التاريخ الأوروبي باسم الميناء البحري اليوناني ، الذي نشبت المعركة

بالقرب منه ؛ ففي التاريخ التركي تعرف هذه المعركة باسم معركة « سنجن » ، وهي كلمة تركية تعني هزيمة ساحقة ، أو هزيمة منكرة . لكن المعركة كانت أقل حسماً مما ظهرت عليه في بادئ الأمر ، واستطاع العثمانيون تغطية جانب كبير من قوتهم البحرية في البحر المتوسط ، وكان في مقدورهم الإبقاء على ممتلكاتهم ضد الهجوم . ويخبرنا مؤرخ تركي بأنه عندما سأل السلطان سليم الثاني (١٥٦٦ - ١٥٧٤) وزيره الكبير سوكوللو محمد باشا عن تكاليف بناء أسطول جديد ، يحل محل السفن التي دمرت في واقعة « لبناتو » رد عليه قائلاً إن قدرة الإمبراطورية هي على هذا النحو ، أي لو أن الرغبة في هذه القدرة هي من أجل صناعة الأسطول بأكمله براوس من ذهب وقلاع من حرير فإننا نستطيع أن نفعل ذلك" [٢٥] .

إن هزيمة الجيوش العثمانية في أوروبا كانت أبعد خطراً وكانت واضحة جداً لكل ذي لب ، ونتجت عن فقدان اللايات الرئيسية وظهور تهديد جديد للبقية ، وهم الأهم في تغيير أساس العلاقة بين الإمبراطورية وجيرانها وأعدائها .

وفي سبيل الحد من نتائج هذه الهزيمة عاد الأتراك للمرة الأولى إلى رذيلة جديدة ، وهي الدبلوماسية ، وتبنوا تكتيكاً جديداً وهو البحث عن مساعدة الدول الأوروبية الغربية مثل انجلترا وهولندا ، لتتوسط لهم وتحقق توازناً في القوة المعادية لأقرب جيرانهم . وكانت هناك محاولات أولية في مثل هذه المفاوضات مع القوى الغربية . ودخل سليمان في نوع الاتفاق مع فرانسيس الأول ملك فرنسا ضد قوى « هابسبرج » التي كان الفرنسيون والخصوم الأوروبيون الآخرون يرونها معاهدة . أما الأتراك فقد نظروا إليها بصورة مختلفة نوعاً ما وقد كتب مؤلف تركي في القرن السادس عشر ما يلي :

"كان باي فرنسا (لقب انحدر بهذا الحاكم إلى مستوى حاكم الولاية العثمانية) يعلق ملازمته وتحالفه دائماً على عتبة عش الهناء ويظهر طاعته وتكريسه للباب العالي الذي كان مصدر القوة ، ولما وجد نفسه محاصراً ، استشار كبار موظفيه ومستشاريه ، فوجدهم جميعاً موافقين على أن أحكم وأفضل السبل هو اللجوء إلى مخبأ ، والبحث عن اتفاق مع العالم الذي يحيط بعرش السلطان" .

ولذا فقد بعث باي فرنسا أحد سفرائه إلى اسطنبول ، ينشد العون ويسلم الرسالة التالية :

"هزمنا عدو لا يلين ، وسيطر علينا وطغى بسبب مساعدة وعون الملك الشرير ملك البحريين ذي الفأل السيء . فإذا تكرم سلطان العالم وضغط على هذا المساعد الملعون لأعدائنا ، عندئذ سوف نتمكن من مقابلته وقتاله ، وستكون لنا القوة في إنهاء أغراضه الشريرة ، عبيدك الشاكرون لسلطان سيادتك ، إننا ننحني بلهفة إليك ورؤوسنا رهن طاعتك" (٢٦) .

ويقول المؤرخ إن السلطان المجيد والعظيم حركه العطف من أجل الفرنسي البائس ؛ فقرر مساعدته وانطلقت الجيوش العثمانية وفقاً لذلك تقتص من الملك الملعون ومن المجرمين . وفي سنة ١٥٥٢م كان هناك تعاون في العمليات الفرنسية والتركية ضد الموانئ الأسبانية ، وهذه العمليات تلقى ذكراً عابراً من بعض المؤرخين العثمانيين ، وليس كلهم .

وعند نهاية القرن السادس عشر كان هناك اتفاق مع الملكة اليزابيث الأولى ملكة انجلترا حول تنوع الموضوعات ، بما فيها قيام جبهة متحدة ضد العدو الأسباني المشترك . ولكن هذه كانت مفاوضات مفككة ، مقدماتها جاءت أساساً من الجانب الغربي ؛ لأن الأتراك كانت تنقصهم السرعة ولم يقدموا نتائج ، وأدت الهزيمة الثانية في فيينا إلى اتخاذ سياسة جديدة . وفي خلال القرن الثامن عشر كان هناك شعور بين العثمانيين بأنهم لم يعودوا أصحاب امبراطورية الإسلام المواجهة للمسيحية ، ولكن دولة واحدة بين دول عديدة قد تكون حليفة . وقد يكون بين هذه الدول العديدة حلفاء ، وكذلك أعداء . والفكرة لم يكن سهلاً قبولها وحتى في نهاية القرن الثامن عشر كانت ما تزال تواجه مقاومة . وكانت تركيا في حرب مع كل من روسيا والنمسا . ونشأ اقتراح له قوة معينة وهو أن قد يكون من المجدي إنهاء المعاهدات مع السويد ، التي كانت أيضاً في حرب مع النمسا ، ومع روسيا التي استطاعت أن تجرد النمسا من المؤخرة . ووقعت المعاهدات وفقاً لذلك مع كلتا الدولتين سنة ١٧٨٩ وسنة ١٧٩٠ ، تلك المعاهدات تعتبر

معاهـدات عسكرية ، وكان أمـام الأطراف وقت طويل منـذ أن أصبحوا يتعـودون على المشاركة في الوجود مع القوى الأوروبية ، وحتى على العلاقة التي يطلقون عليها بطريقة شائعـة كلمات مثـل الصداقة والمحبـة . والأوروبيون ينظـرون إلى مثل هذه الـعلاقات باعتـبارها معاهـدات بينما لـم ينظر الأتراك إليـها كذلك ؛ ففـكرة المعاهدة مـع القوى المسيحيـة حتى ضد قوى مسيحية أخـرى كانت فكرة غريبة ، وإلى حد مـا كانت فكرة رهيبة . وقاضـى الجـيش سانيزيد Sanizade أعلن أن مثـل هذه المعاهدة تنـاقض شرع الله، فقـد قال الله تعالـى في القرآن ﴿ يا أيها الـذين آمنوا لا تتخـذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾ [٢٧] وكان قاضي الجيش محكوماً من قبل المـفتي حمدي زيد مصطفى أفندي ، الذي احتج بقـول للنبي ﷺ ومعناه : « سيـعز الله الإسلام برجال ليسـوا مسلمين » بالإضافة إلى نصوص وأحكام أخرى [٢٨] . وهذا الرأي كان شائعـاً على الرغم من أن الكثيرين نظروا إليه على أنه غير مقبول .

ومن منطـقة واحدة استمر الأسـلوب القديم في الجهـاد - في منطقة غـرب البحر المتوسط - وفـي الدول البربرية ، المـملكة المغربية والأقسـام الرئيسية الثـلاثة : الجزائر وتونس وموريتانـيا التابعة للحكم العـثماني وهي الدولة التي حاربت حـرباً مقدسة ضد المسيحـية ، وظلت كل هذه الدول عـلى الأقل من الناحـية النظرية ذات قوة اسـتعانت الحرب المقدسـة بالوسائل البـحرية أكثر من الـوسائل العسكـرية ، وظلت تمثل مـشكلة مستمرة لـلبلاد المسيحية بـالنسبة للأوروبيين ، فإن البـحر الذي تطل عليـه بلدان شمال إفريقيا . . كان المتجولون فيه قراصنة ؛ كـانوا في نظرهم مجاهدين ، أو يمكن وصفهم على أقل تقدير بأنهم عسكر ، وما كان يعد بالنسبة لبلاد شمال افريقيا جهاداً بحرياً ضد الكفـار ، كان الأوروبيون يعـدونه عملاً من أعـمال القراصنـة . وقد منحت مـكافآت عظيمة في شـكل جوائز مالية في مقابل الـسفن التي يتم أسرها وحمولـتها ، ولم تكن هناك ميزة إضافية متاحة أمام العساكر الأوروبيين .

وفـي ظـل قانـون « الشريـعـة » Sharia فـإن الكفـار الأسرى كـان يتـم بـيعهم بطريقة قانونـية علـى أنهم رقيق ، وإذا استطاعوا أن يفتدوا أنفسهم بالمال في أسواقهم ،

فإن هذا كان يعد من الأفضل لهم . فإذا لم يحدث ذلك فإنهم يظلون عبيداً مملوكين لساداتهم .

إن بلاد شمال إفريقيا التي كانت تقاتل عن طريق البحر تحملت وأحياناً كانت تتشجع لخصومات القوى الأوروبية ، واستمرت في ذلك خلال القرن الثامن عشر . لقد أعطت حروب نابليون وثوراته أهمية جديدة لدول شمال إفريقيا . ولقد قوي من مركزهم وموقفهم المنافسة الحادة للمحاربين الأوروبيين مع إرادتهم القوية ، واستخدام التسهيلات بشكل هائل . وبعد عام ١٨١٥ لم يكن لهذه التسهيلات ضرورة ، فاتخذت القوى الغربية بما فيها عندئذ الولايات المتحدة موقفاً حاسماً لإنهاء هذا التهديد لوسائل المواصلات والنقل الغربي .

هناك طريقة معاصرة لبعض العلاقات بين الحكومات الغربية والقراصنة من البربر ، يمكن أن نجمعها من تقرير السفير العثماني في مدريد بين ١٧٨٧ - ١٧٨٨ . وباعتباره ممثلاً للسلطان ، فإن مستشار الباي من الجزائر كان مهتماً بالاتفاقية التي وقعت حديثاً بين الباي وملك أسبانيا ، ووجد فرصة لمناقشة الأمر مع مبعوث الباي في مدريد فأعطاه بعض التأكيدات أو التأمينات :

إن المعاهدة العسكرية أو المصالحة العسكرية التي عقدها الجزائريون مع أسبانيا كانت في صالحهم تماماً . ووفقاً لهذه المعاهدة يدفع الإسبانيون ألف (١٠٠٠) ريال مقابل كل أسير إسباني في الجزائر ، وكان عددهم ١٢٥٠ أسيراً . والجانب الغريب من ذلك أنه بعد الاتفاقية وعندما ووصلت المبالغ إلى الجزائريين ، أخذوها كلها ثمناً للأسرى الذين كانوا قد ماتوا في الأسر ، ولم يستطع الإسبانيون أن يفعلوا شيئاً حيال ذلك . تقول الوثائق كذلك : إن ملك إسبانيا علاوة على ما أرسله من هدايا إلى حاكم الجزائر تقدر بخمسمائة درهم ومجوهرات وبضائع أخرى ، سوف يدفع أيضاً مبلغاً احتياطياً نقداً من أجل السلام ، وسوف يعطيهم الموارد التي يحتاجونها للأعمال البحرية والترسانة .

وكان هناك أيضاً ما يزيد على مائة (١٠٠) أسير جزائري في إسبانيا ، كان المفروض فداؤهم . ولكن بدلاً من ذلك قالوا : "لسنا بحاجة إلى هؤلاء الخونة الجبناء

- فلو لم يكونوا كذلك ما أسروا" . وتحير الإسبان إزاء ذلك ، وأخفوا هذا الأمر عن الدول الأخرى . ولوضع نهاية للموضع ، كتبوا خطاباً خاصاً إلى حاكم مراكش يقولون فيه : " إن كنت تريدهم فسوف نفك أسرهم من أجلك " . فوافق الحاكم الملهم بقوة الإسلام وتم إرسال الأسرى بعد تحريرهم إليه . وقد أعطى هو لكل أسير منهم مبلغاً من المال والملابس وأرسلهم إلى الجزائر ، وبحث الإسبان عن طريقة ينقذون بها ماء وجههم فنشروا تقريراً بأنهم تصرفوا من واقع طلب جاءهم من حاكم مراكش . وباختصار فإن الثبات الديني للجزائريين أثقل كاهل الكفار وأجبر الإسبان على الاستسلام . وذات يوم في مدريد في حوار مع شخصية جزائرية مهمة سألته : "لماذا تعقدون معهم سلاماً ما دمتم تستفيدون منهم الكثير جداً ؟ "ورد على ذلك : " إننا في الواقع نستفيد منهم بشكل هائل . وهذا السلام سوف يستمر على الأكثر ثلاث سنوات سوف نبقى من خلال هذه السنوات على المكاسب السابقة . أما الآن فإننا نجمع ما يكفي لسنتين أو ثلاثة ، ونحن لا نعاني من أي خسارة" . لقد قصد بذلك أن السلام لم يعد أكثر من حبر على ورق [٢٩] .

وعلى الرغم من بعض النجاح ، فإن القرن الثامن عشر كان بصفة عامة عصراً سيئاً بالنسبة للبلاد الإسلامية واليقظة بين المسلمين ومعرفتهم لمكانتهم التي تغيرت وأشرنا إليها في صور عديدة . إن عوامل كثيرة قد وقعت حتى حدث هذا من خلال تعاملهم مع أوروبا تأثرت القوى في الشرق الأوسط بتزايد تعقيد الأمر ، ونتج عن ذلك تكاليف باهظة للتسليح والحرب . وتأثرت تجارتهم واقتصادهم الداخلي تأثراً عكسياً بالتضخم الكبير في القرنين السادس عشر والسابع عشر . وهذه العمليات تقدمت بسرعة عن طريق العودة للتكنولوجيا ، أو أكثر من ذلك عن طريق نقص التقدم في الزراعة والصناعة والنقل في بلدان الشرق الأوسط ، ويبدو أن انحرافاً كبيراً في الأسعار قد بدأ في الجزء الأخير من القرن السادس عشر . لقد كان انعكاس الشرق الأوسط للعملية الكبرى التي نتجت عن الآثار الجسام لانسياب الذهب الأمريكي والفضة الأمريكية ، والقوة المتعاقبة لهذه المعادن الثمينة ، كان أعظم في الإمبراطورية العثمانية أكثر منها في

المغرب ، ولكن أقل مما كانت في إيران والهند . وكانت البضائع الفارسية خاصة الحرير الفارسي مطلوبة جداً في البلاد العثمانية في الغرب ، حيث لا حاجة إلى مقارنة لأي ثبات بالنسبة لأي إنتاج عثماني . كان القمح والنسيج أهم الصادرات العثمانية إلى أوروبا .

وكان النسيج يتكون من بضائع مصنوعة كثيرة ، ولكن هذه التجارة أخذت في الانخفاض تدريجاً ، وظلت لوقت ما الملابس القطنية فقط بين الصادرات من الشرق الأوسط إلى الغرب . واتخذ موضوع التجارة الجانب الآخر ، إرسال المنسوجات المصنوعة بما فيها الملابس الهندية إلى الشرق الأوسط ، واستيراد المادة الخام مثل القطن والموهير وخاصة الحرير ومعظمه من إيران .

ولا عجب ، فعلى الرغم من انسياب الذهب والفضة من الغرب ، فإن الأرقام العثمانية تكشف عن نقص في المعادن النفيسة ؛ بحيث لا تكفي هذه المعادن حتى لمواجهة احتياجات صك العملة .

في حين أدرت الزراعة بعض الربح من إنتاج محصولين جديدين هما التبغ والذرة من الغرب ، فإن الموقف العام كان واحداً من المراحل التكنولوجية والاقتصادية ، إن الثروات الزراعية والصناعية في أوروبا لم تجد منافساً أو تأثيراً إيجابياً على بلدان الشرق الأوسط . واستمرت صناعة الشرق الأوسط في صورة صناعات يدوية ازدهرت حتى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر ، ولكنها لم تتحرك نحو التطور التكنولوجي .

هذه التغيرات أثرت كذلك في المقدرة العثمانية على الإبقاء على الإمدادات العسكرية للحصول على المواد الخام الضرورية لبناء السفن ، وصناعة البنادق أو حتى بارود البنادق . وكان هذا بالتأكيد أحد العوامل التي ساعدت على تدهور التأثير العسكري العثماني ، إنها في ذاتها جزء من عملية كبرى ضعفت فيها قوة السلطة العثمانية وانخفضت بالنسبة لقوة خصومها . إن اكتشاف العالم الجديد واستعماره حول مركز تجارة العالم إلى المحيط الأطلنطي وإلى البحار المفتوحة حول الجنوب الإفريقي وجنوب آسيا . فأقاليم البحر المتوسط والشرق الأوسط على الرغم من بقائها مميزة في

صور عديدة أوشكت أن تفقد قدراً كبيراً من أهميتها الاقتصادية وبصفة خاصة هذه المزايا التي يمنحها لها موقعها المتوسط بين القارات الثلاث أوربا آسيا وإفريقيا . وعن طريق فتح المحيط انخفضت أهمية البحر المتوسط والشرق الأوسط تبعاً لذلك .

لقد شاع التحكم الاقتصادي الأوروبي في الشرق الأوسط ، وظهر في عدة صور ؛ فبينما كانت صادرات منتجات الشرق الأوسط إلى الغرب مقيدة بتعريفة ، كانت التجارة الغربية إلى الشرق الأوسط تحميها نظم لا قيود فيها . وقد استخدم تعبير Capitulation (من الكلمة اللاتينية Capitula وتعني فصول وتفسر على أنها ثيقة) في العصور العثمانية ؛ للدلالة على المزايا التي كان يمنحها للحكام العثمانيون والحكام المسلمون الآخرون البلدان المسيحية ؛ فقد كانوا يسمحون لمواطني هذه البلاد بالاستيطان والتجارة في البلاد الإسلامية بغير أن يقعا تحت طائلة المصاعب المالية التي فرضها هؤلاء الحكام المسلمون على رعاياهم من غير المسلمين . وكانت هذه المزايا أساساً تمنح باعتبارها فضلاً وإنعاماً من الحاكم الأعظم إلى سائل متواضع (وضيع) وانعكست هذه العلاقة من لغة الوثائق التي استخدمت فيها كلمات مثل التماس وخضوع حتى كلمة خدمة لوصف الرد المناسب على الاستسلام [٣٠].

ومع التدهور المتلاحق في قوة البلاد الإسلامية ، والتغير في العلاقة المؤثرة بينها وبين جيرانها المسيحيين ، أصبحت تتزايد العطايا بحيث زادت المزايا عما كانت من قبل وتضمنت هذه المزايا الإعفاء من الأحكام والضرائب وصار مواطنو القوى صاحبة الامتيازات لا يمثلون إلا أمام محاكمهم القنصلية . مع أواخر القرن الثامن عشر اتخذت حماية القوة الأوروبية مزايا تجارية ومالية مهمة ، وتطورت الممارسة حيث ساهمت البعثات السياسية الأوروبية بوثائق وشهادات ومستندات الحماية في امتداد هائل لحقوق امتيازاتهم . وكانت هذه الشهادات والمستندات أساساً لحماية الضباط المجندين والعملاء الأوروبيين ، كان من الممكن الحصول عليها بطرق غير صحيحة ، وكانت تمنح أعداد متزايدة من التجار المحليين كانوا في حاجة إلى امتيازات وحماية .

في البداية . . رأى الأتراك مشكلة ضعفهم وتدهورهم في الألقاب العسكرية

الواضحة ، وعرضوا علاجاً عسكرياً ، وأثبتت الجيوش المسيحية تفوقاً على جيوش المسلمين في هذا المجال في الأسلحة والتكنيك وفي أساليب تدريب المقاتلين المتصرين .

وهناك مذكرات عديدة كتبها مسئولون عثمانيون وكتاب عثمانيون ، حول هذه النقطة وأحدهم ويدعى إبراهيم متفرقه Ibrahim Muteferrika وهو من المجر ، وقد أعلن دخوله الإسلام كتب مذكرات طبعت في اسطنبول سنة ١٧٣١م ، وكانت بين أوائل ما نشر في أول صحيفة تركية أنشأها إبراهيم نفسه .

ولما كان الكتاب مخصصاً من الناحية الصورية للمسائل الإدارية والتكنيكية . . فقد كان مقسماً إلى ثلاثة أجزاء : الجزء الأول يولي عناية بأهمية النظم الحكومية المرتبة جيداً ويصف النماذج المختلفة الموجودة في أوروبا ، ويناقش الجزء الثاني قيمة الجغرافيا العلمية التي هي مفتاح الإنسان بحدوده وحدود جيرانه ، بوصفها جزءاً ضرورياً من الفن العسكري ومساعداً للإدارة ، وفي الجزء الثالث يراجع المؤلف النماذج المختلفة من القوات المسلحة التي أبقتها البلاد الأوربية ، وأساليبهم في التدريب ، وبناء السلطة عندهم ، وأساليبهم في القتال والقوانين العسكرية . وعنى إبراهيم بمناقشة الكفار الإفرنج ومذاهبهم ؛ لكي يعبر عن نفسه في لهجة اشمئزاز من مواقفهم ، وفي نفس الوقت وضح في كتابه أن جيوش الإفرنج كانت أقوى وأفضل ، وأن العثمانيين كان عليهم أن يقلدوهم إذا أرادوا النجاة والحياة[٣١] .

وفهم الدرس ، ففي سنة ١٧٢٩م وصل أحد الشرفاء الفرنسيين وهو الكونت بونيفال Bonneval إلى تركيا واعتنق الإسلام واختار لنفسه اسم « أحمد » ، والتحق بالخدمة العثمانية ، وفي عام ١٧٣١م وكلت إليه مهمة إعداد كتيبة مسلحة بالقنابل .

وفي عام ١٧٣٤ أنشئت مدرسة هندسة عسكرية ، وفي العام التالي لذلك . . عين بونيفال Bonneval رئيس كتيبة مسلحة بالقنابل ، ومنح لقب باشا وانتهت هذه التجربة، وبدأت تجربة أخرى في ١٧٧٣م مع افتتاح مدرسة هندسة بحرية ، وقد اكتسبت المؤسسات العسكرية أهميتها من الغرب ، وبصفة غالبة من فرنسا ومن الدول الأوربية الأخرى التي كانت تقوم بتدريب الضباط الأتراك على فنون القتال الحديثة ، وتمخض

ذلك عن نتائج هامة . لقد تضمنت علاقة جديدة بين المعلمين الكفر والتلاميذ المسلمين كان عليهم عندئذ أن يحترموا مرشديهم الذين اعتادوا أن يحتقروهم من قبل . وكان عليهم أن يقبلوا تركيباً من اللغات ، لم يحسوا من قبل بالحاجة إلى تعلمه ، وكان عليهم أن يتعلموا كيف يفهمون معلميهم ، وكيف يقرأون كتب الفنون العسكرية والفنون اليدوية . . لقد تعلموا ذات مرة اللغة الفرنسية ، فوجدوا أمر القراءة ممتعاً وأكثر إثارة .

ولقد شهدت هذه الفترة نفسها ابتداعاً آخر جديراً بالمقارنة - صناعة الطباعة تلك التي قام إبراهيم متفرقه Ibrahim Motefrrika بدور هام . وقد جاءت الطباعة إلى تركيا من أوروبا عن طريق المهاجرين اليهود قبل نهاية القرن الخامس عشر ، وأنشئت المطابع اليهدية في اسطنبول وسالونيك ومدن أخرى . وتبع اليهود الأرمن اليونان الذين أنشئا أيضاً مطابع بلغاتهم في المدن العثمانية ، وقد صممت بطريقة لا تطبع معها أي كتب تركية أو عربية . وظل لهذا الحرمان أثره حتى أوائل القرن الثامن عشر عندما تغيرت الحال ، ويرجع الفضل كل الفضل إلى ما بدأه سيد شلبي Said Celebi ابن السفير الذي أرسل إلى باريس سنة ١٧٢١ . وظهر الكتاب الأول في فبراير سنة ١٧٢٩ . وعندما أغلقت المطابع بطريقة إجبارية في سنة ١٧٤٢م . . كان قد طبع سبعة عشر كتاباً ، أغلبها يتعلق بالتاريخ والجغرافيا . وأعيد فتح المطابع في سنة ١٧٨٤ منذ أن انتشرت الطباعة في كل أرجاء الشرق الأوسط ، وظل التأثير الغربي مع ذلك نسبياً لوقت طويل ، والسبب الرئيسي لذلك هو أن تغلغل الأفكار الأوروبية وصل إلى مجموعة صغيرة من السكان . وحتى هذا الصدام المحدود . . كان أحياناً يعكس حركات ردود فعل مثل تلك الحركة ، التي أدت إلى تحطيم أول مطبعة تركية في سنة ١٧٤٢ . وإذا كانت الهزيمة العسكرية هي الدافع المنهج الرئيسي لزيادة قبول الأفكار الغربية . . فإن تأثير هذه الهزيمة قد أخذ يضعف إلى حد ما في أوائل القرن الثامن عشر، عندما كان العثمانيون لوقت ما قادرين على إحراز بعض النجاح . ولكن الدافع تجدد عن طريق قوة غير لاهية عن تتابع الأحداث في نهاية القرون الثامن عشر ، وكانت الضربة الأولى هي معاندة كيناريا Kucuk Kianaria سنة ١٧٧٤ ، التي اعترفت

بالهزيمة العثمانية الساحقة على أيدي الروس ، ووضعت مزايا خاصة بالحدود ومزايا سياسية وتجارية . أما الضربة الثانية . . فقد كانت اتصال روسيا بكريميا سنة ١٧٨٣م ، وعلى الرغم من أن هذه لم تكن الخسارة الأولى المتعلقة بالحدود . . فقد ترك هذا تغييراً هاماً . وكانت الخسائر السابقة خاصة بالدول المهزومة التي يسكنها سكان مسيحيون مع مجموعات قليلة فقط من الحكام الأتراك والمستوطنين الأتراك ، أمام كريميا فقد كانت مختلفة فشعبها من المسلمين المتحدثين بالتركية الذين كان وجودهم في كريما يرجع تاريخه إلى الفتوحات المغولية من القرن الثالث عشر ، وربما قبل ذلك ، وكان هذا أول تراجع لحدود المسلمين القديمة التي تسكنها شعوب مسلمة ، وكانت هذه ضربة قاسية ضد كبرياء المسلمين .

وأما الصدمة الثالثة . . فقد جاءت من فرنسا التي بعثت سابقاً غزواً صليبياً ضد أراضي المسلمين في الشرق الأوسط . ففي عام ١٧٩٨م . قام بونابرت بحملة فرنسية على مصر ، وكانت عندئذ ولاية عثمانية . واحتلها بعد مقاومة ضعيفة . كانت مدة الاحتلال الفرنسي قصيرة وعادت مصر مرة ثانية إلى الحكم الإسلامي . وبذلك اتضحت أهمية الموقع الاستراتيجي والضعف العسكري للدول العربية .

وهناك نتيجة أكبر لهذا الحدث الثالث وهي التغلغل داخل الأراضي الإسلامية ، تغلغل أفكار الثورة الفرنسية الجديدة ، وكانت هذه هي الحركة الأولى للأفكار في أوروبا لتحطيم الحدود التي تفصل عالم الكفار عن عالم الإسلام ، ولممارسة التأثير على التفكير الإسلامي والعقل الإسلامي . وأحد أسباب هذا النجاح حيث فشلت كل الحركات السابقة ، هو بلا شك أن الثورة الفرنسية كانت عَلَمَانيَّة اجتماعية وعقلية في أوروبا ؛ لوجود تعبير أيديولوجي من مصطلحات غير دينية . مثل هذه الحركات الأوروبية الأولى مثل عصر النهضة والإصلاح والثورة العلمية والتنوير ، التي مرت بدون تأثير في العالم الإسلامي ، حتى دون أن يلاحظ .

وربما كان السبب الرئيسي في ذلك أنها حركات مسيحية الصورة ، ولذلك أغلقوا المدخل بوسائل دفاع عقلية إسلامية .

والعلمانية بطبيعة الحال ليست لها جاذبية خاصة للمسلمين ، بل العكس تماماً . لكنه في ظل هذه الأيديولوجية العلمانية أو المحايدة من الناحية الدينية ، فلعل المسلمين كانوا يأملون في اكتشاف تميمة تعطيهم أسرار المعرفة الغربية والتقدم الغربي ، دون الإضرار بتقاليدهم الخاصة وأسلوب حياتهم الذي يرفض المسيحية بمذاهبها المتعددة .

وفي البداية . . فإن صفوة الحكم التركي لم ينظروا إلى الأحداث في هذا الضوء ، ولما انتشرت الثورة من فرنسا إلى بلاد أوروبية أخرى ، كانوا ما يزالون يرونها أمراً يتعلق بالشئون الداخلية لفرنسا ، أو على الأكثر شأناً داخلياً مسيحياً . والامبراطورية العثمانية ؛ باعتبارها دولة مسلمة لم تكن تزعجها هذه الفوضى ، أو تشغلها الوقاية من عدوى هذا المرض المسيحي . وبعضهم كان يرى فيها مزايا ممكنة .

وفي يناير ١٧٩٢ . . لاحظ أحمد افندي السكرتير الخاص للسلطان في حياته اليومية أن الثورة بصرف النظر عن الاهتمام بالقوى الأوروبية ، قد جعلت الحياة أيسر بالنسبة للعثمانيين ، لقد انتهى في حديثه التقى قائلاً : "اللهم اجعل الثرة في فرنسا تنتشر مثل مرض الزهري لأعداء الآخرين للدولة (الامبراطورية) ، تقذف بهم في نزاع طويل كل مع الآخر ، وكذلك حقق للامبراطورية كل نتائج الخير . . آمين" [٣٢].

ولاشك في أن هذا الاعتقاد في أن المعافاة قد أدى بالأتراك إلى رفض العرض الروسي للعمل المشترك ضد فرنسا ، حتى الطلب الأكثر اعتدالاً رفضوه وهو الذي جاء به مبعوثون من النمسا ، ومن بروسيا ، وكذلك من روسيا ، وهو وقف الرجال الفرنسيين في تركيا عن ارتداء تلك الشارة ذات الألوان الثلاثة .

وها هو المؤرخ العثماني جودت باشا يسجل الحوار التالي :

أتى ذات يوم رئيس الترجمان النمساوي إلى رئيس سكرتارية رشيد أفندي، قال له: فليعاقب الله هؤلاء الرجال الفرنسيين بقدر ما يستحقون من عقاب : لقد سببوا لنا ندماً شديداً من أجل السماء . ليعاقبهم الله إذا ما استطعتم نزع هذه الشارات من فوق

رءوسهم ، وردّ رشيد أفندي على ذلك قائلاً : "لا يلفت أحدنا إلى هذه الشارات الخاصة بهم - إننا نعامل تجار الدول الصديقة معاملة الضيوف وما يلبسون من علامات على رءوسهم . . فإنه ليس من شأن الباب العالي أن يسأل عن السبب الذي جعلهم يفعلون ذلك . إنكم تزعجون أنفسكم بغير داع" [٣٣].

وفي أكتوبر ١٧٩٧م. . وفقاً لمعاهدة كامبوفورميو ، صفى الفرنسيون حساباتهم مع دولة فينيسيا والامبراطورية وشاركوا في امتلاكها مع النمسا .

لقد وصلوا هم أنفسهم إلى الجزر الأيونية وبعض الأماكن بالسواحل الخاصة بألبانيا واليونان ، وفرنسا وتركيا اللتين كانتا صديقتين عدة قرون أصبحتا الآن متجاورتين ، ودخلت الصداقة القديمة في حوار مع المواطنين اليونانيين في الجمهورية الفرنسية يأتي حالا الباب التالي إلى اليونان العثمانية ، لا يمكن أن يختفي التناقض ، ولا أن يبتعد الاتفاق . فقبل وقت طويل بدأ الحاكم العثماني في المورة Morea "موريا" في إرسال تقارير إلى اسطنبول .

إنه يقول أن الفرنسيين على الرغم من صداقتهم للباب العالي . . فإن لهم خططاً خطيرة ضده . وبصفتهم ورثة فينيسيا . . فإنهم كانوا يخططون أيضاً للعودة إلى أملاك فينيسيا السابقة الأخرى ، مثل جزيرة كريت والمورة Morea نفسها . حتى ذلك لم يكن هو كل شيء .

فقد كانت هناك تقارير إنذار حول المقابلات والاحتفالات خلف حدود الامبراطورية مباشرة بأحاديث وخطب حول الحرية والمساواة ، وحتى عن استرداد ألوان المجد القديم لليونان [٣٤] . هذه المرة عندما تحدث السفير الرسي الجديد عن هذه الأمور ، وعن تهديد أساليب الحكم القائمة الموضوع ، والمفروضة من خلال الأفعال في فرنسا ، وكان الباشاوات أكثر انتباه . . فقد كتب أحمد عاطف أفندي رئيس السكرتارية العثمانية ، مذكرات عن المحادثات الكبرى للدولة ، يناقش فيها الدعوة النمساوية والروسية للعثمانيين للاتحاد ضد فرنسا لسحقها ، ولمنع الثرة من الانتشار . . لذلك فالرواية تحتاج إلى بعض التفسير ، وقد رواها أحمد عاطف أفندي على النحو التالي :

" على ضوء الملاحظات الجارية . . فإن السؤال ينبغي أن يوضع مضع الاعتبار هو: هل الامبراطورية تخضع لنفس الخطر مثل الدول الأخرى ، أو أن الأمر ليس كذلك ؟ رغم أن الامبراطورية اختارت طريق الحياد منذ بداية هذا النزاع ، فلم تكف عن إظهار الصداقة ومنح المساعدة بأسلوب فاضل لجمهورية فرنسا . وفي الوقت الذي كانت فيه فرنسا في مأزق صعب للغاية ، وأصيبت بمجاعة وقحط . . سمحت الامبراطورية ، باستيراد المواد والإمدادات الوفيرة من الأماكن التي يحرسها الله ، وسمحت بخروج وسائل النقل بها إلى موانئ فرنسا ، وهكذا . .

فقد أنقذتهم من شرور الجوع . ومن ناحية أخرى . . فإن الجمهورية الفرنسية وقادتها لم يكفوا عن محاولة إثارة رعايا الامبراطورية . وبصفة خاصة منذ زمن تقسيم فينسيا ، لقد استولوا على الجزر وأربع مدن في الأرض الرئيسية بالقرب من أرتا Arta وتدعى بوترنتو Butrinto وبارجا Parga وبيفزا Paeveza وفونتيزا ، إن محاولتهم استعادة صورة الحكومة اليونانية القديمة ، وإقامة نظام حكم في هذه المناطق يكشف عما وراءه دون أي حاجة إلى التعليق التفسير للنوايا الشريرة في عقولهم [٣٥] .

وهنا مرة ثانية . . فإن الرعايا اليونانيين والمسيحيين الآخرين للامبراطورية كانوا يعدون قابلين للإصابة الجرح ، وليس المسلمين أنفسهم . ولكن في أول يوليو ١٧٩٨ هبطت حملة بونابرت على مصر ، وبدأت فترة جديدة من التاريخ الإسلامي . إن عدم المعرفة والارتياب الإسلامي في ذلك الوقت . . قد انعكسا على ظن ، صرح به المؤرخ المصري الجبرتي في تاريخه الذي أرخ فيه يوماً بيوم لهذه الوقائع ، التي لم تحدث من قبل :

في العاشر من المحرم ١٢١٣ هـ (٢٤ يونيه ١٧٩٨م) . . وردت مكاتبات على يد الساة من ثغر الإسكندرية تفيد أنه "حضر إلى الثغر عشرة مراكب من مراكب الإنكليز ، ووقفت على البعد بحيث يراها أهل الثغر ما يريدون ، وإذا بقارب صغير واصل من عندهم وفيه عشرة أنفار ، فوصلوا البر واجتمعوا بكبار البلد - والرئيس إذ ذاك فيها والمشار إليه بالإبرام والنقض السيد محمد كريم - فكلموهم واستخبروهم عن

غرضهم ، فأخبروا أنهم انكليز حضروا للتفتيش على الفرنسيس ؛ لأنهم خرجوا بعمارة عظيمة يريدون جهة من الجهات ، ولا ندري أين قصدهم فربما دهموكم فلا تقدرون على دفعهم ولا تتمكنون من منعهم . فلم يقبل السيد محمد كريم منهم هذا القول ، وظن أنها مكيدة وجاوبوهم بكلام خشن . فقالت رسل الإنكليز . "نحن نقف بمراكبنا في البحر محافظين على الثغر لا نحتاج منكم إلا الإمداد بالماء والزاد بثمنه" فلم يستجيبوا لذلك ، وقالوا: "هذه بلاد السلطان ، وليس للفرنسيس ولا لغيرهم عليهم سبيل . . فاذهبوا عنا" فعندها عادت رسل الإنكيز وأقلعوا في البحر ليمتاروا من غير الإسكندرية . . وليقضي اله أمراً كان مفعولاً .

وفي يوم الأربعاء ، العشرين من نفس الشهر وصلت رسائل من الميناء السكندري ، وكذلك من رشيد Rosetta ومن دمنهور تقول أنه في يوم الإثنين ، الثامن والعشرين من المحرم ، وردت مكاتبات من الثغر ومن رشيد ودمنهور بأن في يوم ثامن عشرة (١ يوليو ١٧٩٨م) وردت مراكب وعمارات للفرنسيس كثيرة ، . . . . . ، وطلعوا إلى البر ، ومعهم آلات الحرب والعساكر ، فلم يشعر أهل الثغر وقت الصباح إلا وهم كالجراد المنتشر حول البلد" (٣٦) .

تناقش الجبرتي ومعاصروه في مصر طويلاً بعد رحيل حملة بونابرت على مصر حول الوصول والأفعال والنشاطات ، فلم يعيروا أي انتباه أو اهتمام للتاريخ الداخلي لفرنسا . وصل الفرنسيون ومكثوا فترة وقاموا بأفعال وأمور مختلفة ثم رحلوا ، ولم يهتم أحد بأن يسأل عن سبب مجيئهم ثم رحيلهم . مجيء الكفار كان ينظر إليه على أنه نوع من الكوارث الطبيعية ، فكلما قل الخضوع للسيطرة قلت الحاجة إلى التفسير ، وواحد منهم فقط مسيحي لبناني يدعى نيقولاتورك Necolaturk حاول وضع نبذة مختصرة جداً عن الثورة الفرنسية كمقدمة لتاريخه المصري من ١٧٨٩ إلى ١٨٠٤ :

إننا نبدأ بتاريخ ظهور الجمهورية الفرنسية في العالم ، بعد أن قتلوا ملكهم ، وهذا في بداية عام ١٧٩٢ من التقويم المسيحي ، التي توافق عام ١٢٠٧ للهجرة الإسلامية في هذا العام هب شعب المملكة الفرنسية بكل طوائفه ضد الملك والأمراء والنبلاء ، مطالبين

بنظام جديد وبتقسيم جديد ضد النظام القائم ، الذي كان موجوداً في عهد الملك . لقد زعموا وأكدوا أن قوة الملك "قد سببت دماراً عظيماً في هذه المملكة ، وأن الأمراء النبلاء كانوا يتمتعون بكل شيء جميل في هذه المملكة ، في حين أن بقية الشعب كان يعاني البؤس والشقاء ، ولهذا السبب . . فقد هبوا جميعاً في صوت واحد وقالوا : "لن يتبقى لنا أمان سوى بتنازل الملك وإقامة الجمهورية" وكان هناك يوم عظيم في مدينة باريس وكان الملك وبقية رجال حكومته والأمراء والنبلاء خائفين ، وأتى الشعب إلى الملك وأبلغوه بهدفهم [٣٧] .

ويستمر نيقولا في تفكيره المعقول والدقيق في سرد الأحداث ، التي تبعث ذلك في فرنسا وفي بقية أوروبا أن تغلغل الفرنسيين إلى قلب الشرق الأوسط المسلم ، وظهور الإنجليز على أنهم قوة وحيدة تستطيع التصدي للفرنسيين ، أحدث صدمة قاسية لسعادة وراحة المسلمين ، ولم يكن ذلك فقط ، فبينما كان الإنجليز والفرنسيون يزحفون بعملياتهم العتيدة على شرق البحر المتوسط . . كان الروس مستمرين في تقدمهم نحو الجنوب ، وبدأت صورة جديدة في ١٧٨٣ بالاتصال مع كريميا . ومن هناك تقدم الروس بسرعة في كل اتجاه عبر الشواطئ الشمالية للبحر الأسود ؛ فيضمون الأراضي التي كان يحكمها الأتراك سابقاً ويقيمون فيها هم والتتار والشعوب الإسلامية الأخرى ، وأدى هذا إلى حرب جديدة مع تركيا في نهاية ١٧٩٢ العام الذي اضطر فيه العثمانيون إلى الاعتراف بالعلاقة الروسية بخانات التتار ، وقبول نهر كوبان Kuban في سيركاسيا حداً فاصلاً بين الامبراطوريتين الروسية والعثمانية ، لقد أنهى الروس قرون السيطرة الإسلامية الطويلة على البحر الأسود ، وكانوا يهددون كذلك إيران حيث قامت مملكة جديدة ، وحاول الـ « قاجار » Qajars استرداد الأراضي القوقازية التي سلبتها روسيا ففشلوا . وبمواجهة الغزو الفارسي لجورجيا لجأوا للحماية الروسية ، ووفي يناير ١٨٠١ أعلن انضمام جورجيا إلى الامبراطورية الروسية ، وتبع ذلك في سنة ١٨٠٢ إعادة تنظيم داغستان والأراضي التي بين جورجيا وبحر قزوين ؛ بوصفها حماية روسية ، وكان الطريق عندئذ واضحاً للهجوم على إيران ، ذلك الهجوم الذي بدأ ١٨٠٤ ، ونتج عن ذلك أن ضمت روسيا أرمينيا وشمال أذربيجان .

وفي ذلك الوقت . . ترك الفرنسيون مصر ، ولكن كان هناك خوف من أن يعودوا مرة ثانية ، ولقد أحدث الوجود البريطاني ارتياحاً "اطمئناناً قليلاً" ولقد عكس المؤرخ نيقولا بوضوح فزع المسلمين من هذا التهديد المزدوج من أوروبا الغربية والشرقية :

في هذا الشهر (فبراير ١٨٠٤) . .جاءت تقارير إلى البلد من أجزاء أخرى ، بعث إليها الفرنسيون قوة عظيمة من البحر المتوسط لسفن عديدة وقوات كثيرة ، وكان الناس في الشرق في خوف عظيم من ذلك ، وقد شاع أن الإنكليز أتوا كذلك بسفن ورجال إلى الإسكندرية ليحموا أرض مصر من الفرنسيين ، كثرت هذه الشائعات ولم تكن عقول المصريين بسيطة أو سهلة بخصوص هذه البلاد الأوروبية ، لأنهم شهدوا معاركهم البحرية وجسارتهم ، وقال الشعب إن واحداً أو آخر من الملوك الإفرنج كان ينوي الاستيلاء على أرض مصر ؛ لأنهم رأوا نقص شجاعة الرجال المسلمين في شئون الحرب وشن المعارك ونقص ثباتهم .

في ذلك الوقت . . كانت شائعات عن السلطان قنسطنطين Constantina شقيق السلطان الإسكندر سلطان روسيا المعرف باسم موسكوب Muskub تقول إنه أخذ مملكة جورجيا ، واستولى على أراضي الفرس ، وتوجه نحو بغداد .

وكانت الدولة العثمانية في فزع شديد من هذا السلطان الذي لقب بـ « الصخرة الصفراء Yellow Rock أو الهمجي الأصفر Yellow Barbarian ؛ وكانت لدولة موسكوفيت Muscovite حروب عديدة ومعارك كثيرة مع الدولة العثمانية ، منذ عهد السلطان أحمد الذي تولى قفي عام ١١١٥ (١٧٠٣) حتى زمن السلطان سليم الذي تولى ١٢٠٣ (١٧٨٩) ، وكانت هذه الامبراطورية تكبر وتنتشر وتتوسع بدون توقف ، تصطلم الشعوب وتستولي على الأراضي وتكسب المعارك حتى عام ١٢١٨ (١٨٠٤) لقد صارت قوية وأي قوة . وكان الوقت مناسباً لهم ، واستولت الدولة على أراضي التتار وأراضي جورجيا والأراضي الفارسية . وبدأت هذه الدولة تتوسع وتنمو وسوف يستمر هذا إلى ما شاء الله [٣٨] .

لم يرجع الفرنسيون في واقع الأمر . وبعد السلام الذي تم في ١٨٠٢ انسحبوا من كل مصر والجزر الأيونية ، ولم تعد فرنسا - جارة تركيا - قادرة على أن تصل إلى الأتراك بأفكارها . فخطابات السفير خالد أفندي Haltefandi وهو السفير التركي في باريس من ١٨٠٣ إلى ١٨٠٦ تكشف الآتي :

إنني أناشدكم الدعاء والصلاة من أجل عودتي سالماً من أرض الكفار هذه ، إنني أجيء من باريس ولكنني لم أجد تلك الأراضي الإفرنجية التي تتحدث عنها الشعوب وتمتدحها ، وأي بلد أوروبي هذا الذي يمكن أن توجد فيه أشياء رائعة وحكماء إفرنج ؟ لا أعرف بلداً منها على هذا النحو .

العظمة لله أي عقول ومعتقدات تلك التي يتميز بها هؤلاء الشعوب ؟! إنه لأمر غريب ، إن أرض الإفرنج هذه التي فاضت آذاننا بكلمات المديح عنها وقتاً طويلاً ليست كذلك ، بل هي على العكس مما قيل عنها . . .

وإذا سألكم أي فرد - بنية تخويفكم أو إجباركم على مديح مضلل- هذا السؤال:

"هل سافرت إلى أوروبا أو لا ؟ فعلاً سافرت وتمتعت فترة" ، فثق إنه عميل وجاسوس للإفرنج . وإذا قال "لا ، لم أسافر ، إنني أعرف أوروبا فقط من كتب التاريخ" عندئذ فإنه أحد أمرين : إما أنه حمار يقبل ما يكتبه الإفرنج ، أو أنه يمدح الإفرنج بعيداً عن التعصب الديني[٣٩] .

إن الافتراض في العبارة الأخيرة السابقة هو أن أي فرد يمتدح الإفرنج هو نفسه - مسيحي - ربما مسيحي عثماني - ويمتدح رجال الدين الأوروبيين الذين يشترك معهم في هذه الصفة .

كان خالد أفندي متحمساً كارهاً لما يتعلق بالغرب ، ولكن خطاباته تبين كيف كان التأثير الفرنسي القوي فصار على هذا النحو . إن انتشار الأفكار الفرنسية حتى في اسطنبول أكده المؤرخ الامبراطوري أحمد سليم أفندي ، الذي كتب تاريخاً عن الفترة بين ١٧٩١-١٨٠٨ ، وكان لديه ما يقوله عن النشاطات الفرنسية في تركيا .

لقد حيروا العقول ، ليس فقط عقول الدولة ، لكن أيضاً عقول عامة الناس . ولكي ينشروا أفكارهم الهدامة . . فقد بحثوا عن الاشتراك مع المسلمين ، يخدعونهم بشعارات الصداقة والإرادة الطيبة ، وهكذا من خلال منهج اجتماعي مألوف وجدوا ضحايا كثيرين .

يتعلم بعض أصحاب النزوات المجردين من ثوب الولاء ، من وقت لآخر ، السياسة منهم وبعضهم لرغبته في تعلم لغتهم اتخذوا معلمين فرنسيين ، ينشرون مصطلحاتهم ويفخرون بأنفسهم . . بحديثهم اللفظ . ولهذه الصورة . . كان في مقدور الفرنسيين أن يغزوا عقول بعض الناس ذوي العقول الضعيفة والإيمان المذبذب ، أما أصحاب العقول الذكية وسفراء الدول الأخرى جميعهم رأوا خطر الموقف ، المليء بالإنذار ، لقد لعنوا وأدانوا هذه الأمور سواء البسيطة أو المعقدة ، وأعطوا إنذاراً بالنتائج والعاقب الوخيمة التي تنشأ عن أفعالهم . أما المجموعة السيئة القصد والفرق الكريهة فمشبعة بالحيل والخداع ، يبذرون في البداية بذور سيئاتهم في قلوب العظماء في الدولة ، ثم بعد ذلك التحريض والإغراء في أساليب تفكيرهم ، وذلك للهدم والتقويض - يحفظنا الله - لكل مبادئ الشرع[٤٠] . . . لقد دخل التأثير الغربى فى الشرق الأوسط مرحلة جديدة وعنيفة .